حسين عيد

قطار الحادية عشرة

دار المعارف

تصميم الغلاف : **منال بدران**

(المؤلف حائز على الجائزة الأولى للرواية لمسابقة نادى القصة ١٩٨١)

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

فى القاعة ..

يتململ (ص) فى جلسته.. ينظر حوله ضجرًا.. ينبعث ضوء مصباح صغير من أقصى القاعة . . يتخلل الظلام . يتقاطع مع الأشعة الضوئية المنبعثة من الجهاز ، الرابض فى صدر القاعة . يموج المكان فى ضباب كثيف . تتداخل فيه سحب دخان السجائر والحشيش . .

يهمس (ص) لصاحبه : ألا يمل هؤلاء الناس من طول مشاهدة نفس برامج هذا الجهاز ؟ .

– هكذا تعودوا .

يفرد ساقيه : إلى متى يستمر الأمر؟!

– ألسنا نتابع ما يعرض علينا ؟

– من مقاعد المتفرجين ؟!

– هذا دورنا . . ولنا فى ممارسته حرية مطلقة . .

يشير صاحبه بأصبعه إلى المجاورين : انظر بنفسك . . حرية مطلقة . .

البعض يتفرج . . البعض نيام . . آخرون يتناقشون . . أو يتأملون . . أو يأكلون . . أو يمارسون . .

يتأفف (ص) : أصبح جو القاعة خانقًا . . لا يحتمل . .

– لأنك جديد بيننا . . سنوات بعثتك الدراسية فى أوربا . . غيرت تفكيرك . .

– ربما . . لهذا أعتقد أن من حقنا أن نشارك فى صنع ما يعرض علينا من برامج .

– أنت تعرف النظام . . هذه البرامج تعد بواسطة خبراء متخصصين . .

– لكننى أجدها . . تافهة . . غير منطقية . . تثير الجنون . .

– من حقك ألّا تشاهدها إذن . . أنصحك أن تشغل وقتك بالعمل . بالنوم . . بالطعام . .

يخرج (ص) حبة مهدئة . . يبتلعها : لا أستطيع . . الأمر يبدو لى ككابوس مزعج . .

يبتسم صاحبه إبتسامة العارف ، الواثق : إن ما يحدث لك . . تكرر كثيرًا . لحظة صمت : لكنك ستعتاد الحال . . وتنتهى معاناتك .

ثم ملوحًا بيده فى عمق القاعة : انظر بنفسك . . وسط هذا الجمع الحاشد . . يعيش كل فرد حياته . . بحرية . .

يتطلع (ص) حوله مذهولا . . تكتظ القاعة بالمشاهدين . يتكاثرون باستمرار . يختلطون . ترتفع أصواتهم كالعويل . تتمدد أفواههم . تبتلع صخب المكان . . لكن الجهاز يظل سادرًا فى عروضه التى لا تنتهى . .

٣٠ ديسمبر ١٩٨١

الكوبرى . .

١

تباطأ كامل خلال عبوره مقهى القرية الوحيد ، جلس مرهقًا . ركن حقيبته الضخمة بجواره . . كان الحاضرون قلة . يتحركون بعصبية . لا يتحدثون . يتناولون مشروباتهم على عجل . ينطلقون مهرولين .

ترامت أمامه بيوت القرية . تزاحمت . بدت مهجورة على ضوء أشعة الشمس الغاربة . .

« يجب أن أغادر قبل أن يهبط الليل على القرية » .

حدّث كامل نفسه . . تقدم منه عجوز مغضن الوجه . وضع أمامه كوب شاى أسود اللون وكوب ماء . إنصرف دون أن ينطق .

رشف من كوب الشاى الساخن رشفة سريعة . رنا بناظريه إلى مخرج القرية المتسع ، المترب . . كان الكوبرى رابضًا – بظلاله الممتدة على البعد – شامخًا ، متجبرًا . .

تناول رشفة أخرى . نظر حوله . . اكتشف المقهى خاليًا من الرواد . .

« يجب أن أغادر أنا أيضًا . . ما أسرع مرور الوقت ! »

رمى قطعة نقود فضية على الصينية . آنسه رنينها الخافت . حمل حقيبته ثانية . اندفع ناحية مخرج القرية الوحيد . . فى اتجاه الكوبرى . .

٢

يجتاز كامل مدخل الكوبرى . يشعر بلسعة برد . تيار دافق من ريح قارص . يحكم أزرار معطفه القديم حوله . . يمشى وحيدًا فى الظلام . معظم مصابيح الكوبرى معطوب . تتلاطمه أنوار كشافات السيارات القادمة من ورائه . تضىء الطريق للحظات خاطفة . .

« يجب أن أمضى للأمام . . أن أستمر فى الترحال . . وهل أستطيع غير ذلك ؟! »

يتذكر ما حكاه الأب ذات مرّة : « سمعنا أن رجلا رفض أن يسافر . . اختار القرية كى يمكث فيها وحده . . اعتقد أنها أجمل مكان فى العالم . . لأنه لم يشاهد أى مكان آخر . . فتاه بين سراديبها وأزقتها الخفية . . لم يعثر له أحد على أثر . . » .

يحسّ ثقل الحقيبة فى يده . يبدلها فى الأخرى . يتحرك حثيثًا . . يكاد يتعثر فى حفرة بأرضية الكوبرى . يتحامل . يتشبث بحاجز الكوبرى . تسقط عيناه على المياه الملتمعة . التى تنساب برفق . . تطارده أشباح خفية . يجرى يهرب . يجد نفسه محاصرًا فى غرفة مغلقة . . المياه تتسرب من شقوق بالجدران . ترتفع بالحجرة . يلهث . يتصبب عرقًا . يبحث عن مخرج . . يترامى أمامه جسم

الكوبرى . طويلا . متحديًا .

يرنو إلى السماء ، تزحف طبقات السحب ، تتراكم ، تتداخل . تتكتل . تشكل حاجزًا رهيبًا . لا يتسرب منه بصيص من نور نجم واحد . .

يسرع فى خطوه يدبّ على الكوبرى متعجلا . .

٣

يقترب الكوبرى من نهايته . سيغادره فى أية لحظة . . إلى الطرقات الممهدة . . يتريث مفكرًا : هنا مفترق الطرق . . ثمة طرقات شتى . . بعضها مضاء واضح . أخرى مختبئة بين الظلمات . .

يحملق أمامه تجيش أعماقه بيقين غامض . . « إن سبيل السفر مازال طويلا . . لكن يجب أن أختار طريقى . . » .

يتنفس بانتظام . يتطلع إلى الأفق الغارق فى الظلمات . . « يجب أن أختار طريقًا . . » .

٧ يناير ١٩٨٢

قطار الحادية عشرة . .

١

«كان لابد أن أبكّر . . »

حدّث كريم نفسه . . ثم تمتم . عابرًا مدخل محطة مصر « أوكان يجب أن أبكر بالحضور قبل هذا الوقت بكثير ! »

يقترب من نافذة قطع التذاكر على استحياء : تذكرة ذهاب وعودة . . القاهرة أسوان . .

يتثاءب بائع التذاكر : والموعد المطلوب ؟ !

تنزل نظرات كريم على رأس البائع الصلعاء إلى عينيه المجهدتين : قطار الحادية عشرة . .

يناوله الثمن . يقبض على التذكرة . . يضعها فى جيب النقود الصغير . يشعر بثقل حقيبته فى يده . . يقنع نفسه أن ثقلها طبيعى لما تحويه من ملابس . بخلاف أوراق ، ومستندات مهمته الرسمية فى أسوان .

يخترق الباب الموصل إلى رصيف القطار . يزدحم الرصيف بأكوام المنتظرين ، بين نائم وجالس ومنزو ، وسط القفف والأقفاص والحقائب . يتوقف . . « لكن القطار لم يصل بعد . . »

– القطار بالمخزن . . لماذا ننتظر هنا ؟ !

يلتفت للمتحدث . . كان شابًّا رقيق الحال . يبدو كأحد العمال الذين تعج بهم مصانع القاهرة . .

يبتسم كريم ، ينقاد وراء الشاب بامتنان ؛ فتجربته السابقة تؤكد ازدحام القطار عند دخوله المحطة ، بل إن معظم أبواب عرباته تكون مغلقة .

ينحدران على الرصيف . ترتطم الأقدام بالحصى . يتحركان بجوار قضبان القطارات وسط ليل حالك السواد ، تلتمع فى سمائه بعض النجوم . .

يقول الشاب : كن على حذر من التحويلات والأسلاك . .

تعتاد عينا كريم الظلمة . يتوه فى الخلاء والصمت المحيط بهما ، لا يخدشه سوى وقع خطواتهما على الأرض غير المستوية . .

« كان يجب أن أكون أكثر حذرًا . . من هو هذا الشاب ، المجاور لى ؟ . . ما هى هويته ؟ . . كيف انسقت وراءه ؟ . . لماذا أطعته ؟ ! »

يفكر كريم . يقطب ملامحه . يرقب الشاب من طرف خفى . . لا يكشف وجهه الأسمر عن شىء ، وسط الأضواء ، الخافته ، المتناثرة . .

ينساب الطريق تحت أقدامها . . « دبيب خطواته يقترب . . ماذا يريد منى ؟ . . ماذا يدبر لى ؟ ! »

تصفع أذنيه همهمات بشرية عبر الهواء ، دوائر ضوء – على البعد – تظهر وتختفى . . ينبثق من قلب الظلام مبنى ضخم . . « لعلنا اقتربنا من مخزن

القطارات . . فلأوسع خطواتى . . وسط النور . بين الناس فى القطار ، تكمن النجاة .

يكاد كريم أن يجرى . يلاحقه الشاب . تبدأ مطاردة خفية . تعلو خفقات القلب . تلهث الأنفاس .. « إذا كان لا يريد بى شرًا . . فلماذا يلاحقنى ؟! »

يجرى كريم . يكاد يتعثر . يتماسك . . «كان الظلام رعبى الأزلى منذ الطفولة . . وها أنا أحتمى بالظلام من اللاهث ورائى ! »

– لماذا تجرى يا أخى . . لقد وصلنا . .

لا ينظر كريم وراءه . يقتحم المبنى مندفعًا . يتوقف . المخزن مقبرة ضخمة . يربض فيه عدد من القطارات . تلفحه الأصوات والروائح البشرية ..

– اركب . . هذا هو القطار . .

يتردد . تسقط عيناه خارج المخزن حيث الظلام . يمد يده . يصعد . يدخل . يهرب . . عربة القطار كالكهف . . كهف قديم ، بدائى منذ عصر أبينا الأول آدم . أنوارها شاحبة . أغلب مصابيحها معطوب ، طلاؤها باهت ، متساقط ، متقشر فى أكثر من موضع المقاعد السفلية مكتظة بالمسافرين . الرفوف العلوية محملة بالرجال ، غالبيتهم من جنود الجيش ، كأنها صنعت للنوم والجلوس . .

لكن . . يتلفت كريم حوله ينقب عن رفيق الطريق دون جدوى . . «كيف اختفى ؟ . . هل تاه وسط زحام الخلق أم هو يتحين فرصة أخرى مناسبة لاصطيادى ؟ ! » .

يكتشف كريم عبث محاولاته فى البحث عن مقعد خال ، أو عن رفيقه المجهول . يسرع بمغادرة عربة القطار إلى عربة أخرى . وهو يكرر : كان يجب أن أبكر بالحضور قبل هذا الوقت بكثير . . كان يجب . .

٢

لفّ كريم معظم عربات القطار . اخترق زحام المفترشين أماكن المرور . أغرقه العرق وسط الظلام . فشل فى العثور على مقعد فى أى عربة ، سواء منها المظلمة أو المضيئة . أيقن أن كل المقاعد محجوزة منذ وقت مضى . . تساءل : هل بكر هؤلاء بالحضور منذ الصباح ؟

يفاجأ بصوت : أفندى . . أفندى . .

ينتصب أمامه صاحب الصوت من طيات الظلام : أتريد كرسيًّا ؟!

إيماءة إرهاق قصيرة . حمل الرجل حقيبته كأنه يختطفها . أضاء مصباحًا صغيرًا ، لينير طريقها .

اندفع مسرعًا : اتبعنى . .

ينطلق كريم وراءه متعجلا . . يناديه . يضيع نداؤه وسط الضجيج . يضطر أن يجرى كى يلحق به . . « يا للسماء . . أين ذهب بالحقيبة ؟! هل يمكن أن تضيع أو يسرقها هذا الشخص ؟ . . لماذا أطعته . . وأسلمت له الحقيبة . . لقد جرى بها قبل أن أنطق ؟ . . لماذا . . هل ثمة اتفاق بينه وبين رفيق الليلى على سرقتها ؟! »

يجرى كريم كالمجنون يتبع ضوء مصباح الرجل المتحرك بين العربات . . « إذن الحقيبة هى الهدف . . ملابسى ومستنداتى هى ما يبغى رفيق المجهول ؟! »

أصبحت كالمشدود بخيط خفى لحامل الحقيبة الهارب . . أبدًا لن يستسلم . . من عربة لأخرى ، يخوض وسط كتل بشرية متراصة . . يشق طريقه بصعوبة .

أخيرًا يتوقف الضوء . يسلط على ثغرة قصيرة جدًّا خالية على حافة كرسى خشبى . يضع الرجل الحقيبة أمامها : اتفضل . . اجلس . .

ترتفع موجة تذمر من الجالسين اللذين ربمّا سبق أن أرشدهما نفس الرجل من قبل لذات المكان . . يصرخ الرجل بفتوة : الكرسى يسع ثلاثة !

تندثر موجة التذمر . يفسح الجالسين مكانًا. يمد كريم ساقه ليجلس . يشعر بجسد نفس الرجل يحتجزه . يمنعه من الحركة . وبصوته الأجش يقترب من وجهه فى الظلام : أفندى . . عشرين قرشًا يا أفندى !

يعطيه كريم ما طلبه صامتًا . يغادره الرجل مهرولا بحثًا عن أفندى آخر . .

ينحشر كريم بصعوبة على الكرسى . . يحس سخونة جسد من يجاوره . ساقيه بالكاد تجدان مكانًا بين الحقائب والقفف . روائح عطنة تزخم المكان ، يختلط فيها العرق بدخان السجائر ، بروائح الأطعمة ، وحرارة الجو . . بائع مثلجات يعبر المكان مناديًا على بضاعته . على هدى مصباحه الصغير . . ينتبه كريم فجأة « إننى لم أر وجه الشاب الذى أجلسنى . بل أشعر أن صوته ليس غريبًا عنى.. فهل يمكن أن يكون– هو نفسه– رفيق الطريق للمخزن؟.. هل يمكن ؟ . . وأجلسنى فى المكان الذى اختاره فى غفله منى ؟! . . هل يمكن ؟!

ينتفض كريم فى مجلسه . . يحسّ أنه محاصر بالبشر والمتاع والظلام . . يتفصد العرق من جبينه . . يبلل إبطيه . يقبض على حقيبته بعصبية . . « أين المفر؟ . . أين المفر؟! » .

يسمع الجالس بجواره يحدث زميله : العشاء . . يا أبو محمد . .

يربت على ذراع كريم : اتفضل معنا . . لقمة على العشاء . .

يرتعد كريم لملمس يد الرجل على ذراعه . . ينظر إليه مرعوبًا . . صعيدى

لا شك. يتمالك نفسه : شكرًا . . سبقتكما من زمن . .

يسرح بصر كريم إلى الظلام المجاور . يشم رائحة طعام جاريه . . « صعيدى طيب . . لكن يبقى رفيق الطريق . . إذا كان الرجل قد خطط لشيء ما . . فكيف ستكون ضربته ؟ . . وما هو مداها ؟ وما هى مطالبه ؟ . . فقط لو أعرف . . آه لو أعرف ! »

— زجاجتين وحياتك . .

طلبهما الصعيدى من بائع المثلجات . لعلهما تساعدهما على ابتلاع الطعام ، كبديل للماء . . تناولهما من البائع . دفع الثمن . استرد الباقى . . أشعل « أبو محمد » عود ثقاب . أمسكه للصعيدى وهو يعدّ النقود . ينفجر الصعيدى فى البائع : ناقص شلن !

ردَ البائع بهدوء : عد الباقى مرّة ثانية . . يا أخى . .

كان فى نبراته تهديد مستتر . . اشتم كريم رائحة الخطر . . أيقن أن الأمور لن تمر على خير . وأن شيئًا مريبا يدبر فى الخفاء . . ليُجرّ إليه دون أن يدرى .

يصرخ الصعيدى : بقول لك . . ناقص شلن .

يعلو صوت البائع ، بنفس نبراته المتوعدة : راجع الباقى . . يا أبويا . .

ينتفض الصعيدى واقفًا . يرفع يده فى لمح البصر . يلتمع نصل فى الظلام . . يطير كريم من كرسيه فزعًا . . « اللعبه محبوكة . . مشاجرة مفتعلة . . سلاح أبيض . . مطواه . . ثم ضربة عشوائية فى الظلام . . يضيع فيها . . يصير هباءً ! »

يبتعد كريم بقدر ما يسمح به ازدحام المكان . يتدخل أبناء الحلال لفض الخلاف . كل يدلى برأيه . . عينا كريم تفتشان المكان . تلسعه عينان ترقبانه فى

صمت . يتشبث بحقيبته بعنف . يكاد يختنق . « هل يستغل الشاب الأسمر هذه الفرصة . . ليضرب ضربته ، . . وتقع الواقعة ؟ . . هل . . »

يجلجل صوت جندى من أعلى الرف : دعوا الصعيدى . . دعوه يضربه . .

ينكمش كريم . ينزوى . . لكن ينجح مسعى فض النزاع . يدفع بائع المثلجات القروش الخمسة للصعيدى .

تعلو بعض التعليقات . تتداخل معها بعض الضحكات .

يعود كريم لجلسته مرهقًا . يتنفس الصعداء . . « فشلت هذه المحاولة . . لكنى أعرف أنها لن تكون الأخير . . أنا أعرف ! »

٣

– اتفضل سيجارة . . ألا تدخن ؟

يهزّ كريم رأسه نفيًا للصعيدى الملتصق به . يشعل الرجل عود ثقاب لسيجارته . يفاجأ كريم بوجه يميل فوقه . . يلتفت مرعوبًا . . كان وجه نفس الشاب الأسمر ، رفيق الظلام ، يهمس مبتسمًا : حسنًا . . أنك وجدت مكانًا هنا . . أنا أيضًا أجلس فى آخر العربة !

تركه دون أن يزيد كلمة . . وكريم ، مسمرّ مكانه كالصنم . فاغرًا فاه . لا يتحرك . .

٢٤ أكتوبر ١٩٨٠

الجدران . .

« أواه . . لقد انعدم العدل من العالم أيها الناس . . فهو يذنب ، وعلى أنا أن أعتذر ! »

الشيخ أبوسعيد

١

تفتح نادية نافذة الغرفة الوحيدة . تتسلل أشعة الشمس إليها تتصاعد إلى أذنيها ضجة أولاد الحارة يلعبون . . « شاركنا أطفال الحارة لعبهم فى غيبة الأب . أما فى وجوده فالحبس بين الجدران . الحركة بحساب . الهمسة بحساب . . »

تجلس على كنبة أسفل النافذة . تمسك بين يديها صينية مستطيلة عليها كمية من الأرز . تعبث أصابعها بين حباته . . تحاول تنقيته . .

تنظر إلى أبيها الممدد على السرير . . « على ظهرك تنام دائما . . عيناك تحملقان فى سقف الحجرة » .

تلتقط بأصابعها المدربة قطعة طين صغيرة من الأرز . . « أصبح الآن وجهك هادئًا . مستكينًا . . ضاع جبروتك بين سنوات المرض . . » .

ينتقل بصرها تلقائيًا إلى علب الدواء المتناثرة . على مائدة صغيرة بجوار السرير . يرتفع وراءها حائط ضخم . . « شاهدته من قبل فى مكان آخر . . هل كان حلمًا ؟ . . أم هى الذكريات تتداخل لتعكر صفو الحاضر . . الأب نفس الأب . . لكن . . كم كنت قويًا فى تلك الأيام البعيدة . . « قالت الأم : نريد أن نشترى أحذية لبناتك الثلاث . .

توقف الأب عن مضغ الطعام . تطلع إليها مستفسرًا . .

تلعثمت الأم : للمدرسة طبعًا . .

بصوت حاسم : بناتى لن يذهبن إلى أى مدرسة بعد اليوم . .

اندفعت : لكن يا . .

ارتفع فوقى ظلّ عملاق . إنقلبت بعض أطباق الطعام . انهال ثقل كفه على صدغى . فنال عينى . توالت الصفعات . تطايرت الصرخات دون جدوى . . نالت الأم والأختين نصيبهما المر . . »

تنهض نادية تترك الصينية على الكنبة . تكاد تلمس آثار الكدمات فى مواضع شتى من جسمها . . تقترب منه . . شخيره منتظم . عيناه بارزتان فى تجويفهما . شاحب الوجه . . تشد الغطاء على صدره . تجيش نفسها بالبكاء . . « من كان يظن ؟ . . من كان يصدق ؟! »

تتنفس بضيق . . « قال الزوج : أراك تضحكين دائمًا بسرعة . .

– وأبكى بسرعة أيضًا . .

– لاحظت ذلك كثيرًا . .

– لم لا أضحك إذن . . إذا كنت معتادة على البكاء ؟! »
تنتبه . تتذكر عبده . تكتئب . . « لم أكن أنتظر منه ذلك مطلقًا » . . .
تشم رائحة الطبيخ يغلى . تندفع إلى المطبخ . . « أحسّ عيناه ورائى دائمًا تحاصرانى . . »

تكشف غطاء الوعاء . تقلب الطبيخ . يرتفع البخار . يحجب الرؤيا . .
« قالت : نفسى فى رجل يحبنى ويقدرنى . .
– أمامك . . ألا ترين ؟!
– يا ليت !! »

تغطى الإناء . تهدىء نار الموقد . . « ستعود الأم بالمشتريات بعد قليل . . وتدعونى للغذاء . كمن تذكرنى ببيتى . . لكنى هذه المره سأقبل . . سأبقى . . »
تغادر المطبخ . تسمع حفيف خطواتها على أرضية الشقة . . نفس الحفيف – تذكره – على أرض أخرى . . « هل كان حلمًا ؟! »

يرتفع رنين جرس الباب بإلحاح مستمر . تتجه ناحيته . . « هل هى الأم ، أم شخص آخر مجهول ؟! » .

٢

تفتح الباب . . تفاجأ بعبده أمامها . يفتعل ابتسامة : صباح الخير .
تطيل النظر إلى عينيه ، ومضة ضيق تنبض فى الأغوار البعيدة : صباح الخير .
– ألن تدعينى للدخول ؟!

تأخذ جانبًا . يعبرها . يلج حجرة الأب . تغلق الباب . تتبعه . . « لماذا جاء ؟ »

يجلس على الكنبة . يشعل سيجارة مستوردة : كيف حال عمى ؟

ترقب أصابعه السوداء ، وجهه الباسم : لم أتيت الآن ؟

– لماذا نتشاحن . . أتيت من أجلك طبعًا . .

تنصت بحذر « أسلوبه الناعم ، الأملس . . أيظننى زبونًا فى ورشة إصلاح السيارات . . يستطيع أن يطويه بكلمات معسولة . . »

– لن أعود معك . .

يدخن عبده بهدوء ، كأنه لم يسمع . لكن ارتعاشة السيجارة بين أصابعه لم تغب عن عينى نادية المرابطتان . .

– لماذا تغدرين بى ؟

« عيناك تنقبان ورائى . تتابعانى أينما كنت . أسئلتك الخبيثة تطاردنى . تقيدنى . . نظراتك اتهام صامت أعانيه كل لحظة . . أنا التى لم أذنب . . وأخيرًا تصمنى بالغدر »

يخرج صوتها خافتًا : أنا لا أغدر بأحد . . لكن غيرى قد يغدرون بى .

– تعرفين أننا قضينا معًا أيامًا سعيدة . . وأمامنا حياة .

تغرورق عيناها بالدموع . . « يستدرجنى إلى وهاد الذكريات الماضية . . يسحبنى إلى أرض ناعمة . أحن إليها . . الأب بجسمه العملاق يحضر الفرح . يحتضن عبده مقهقها . الأختان واتتهما فرصة الزواج فى المناسبة ذاتها . إنزوتا بعدها فى حياتهما الجديدة .. مع ذكريات فتوة الأب الماضية . . لكن المرارة

تنضح . . وحدى أزورك يا أبى . . بل سأقيم معك . . وهل بعد اتهامات عبده من مزيد ؟! »

– لن أعود معك . .

يجذب نفسًا من سيجارته بعصبية . تعبث يده بشىء ما فى جيب (بنطلونه) . . تقع نظراتها على أبيها طريح الفراش . تتحرك إلى الحائط المجاور . . ثمة تغيرات ظاهرة لم تلاحظها من قبل . . شرخ طولى ينحدر من أعلى الجدار . .

تهز رأسها . . « هل كان حلمًا ؟! »

تجتاح أنفها رائحة الطبيخ . . « هل نضج بهذه السرعة ؟ »

٣

تستدير نادية . تغادر الحجرة . . « شد ما أكره تفكيره السقيم » . . تشعر فجأة بوخزة نصل حاد ينسل فى جانبها الأيمن . . ينتابها ذعر هائل . تنفلت من فمها آهه ألم دون وعى . تتشبث عيناها بالجدار . تهرول مرعوبة ينفتح أمامها باب خشبىٌّ . تسقط فى متاهة من الجدران . تستطيل بجوار الباب . لكن المكان يقود إلى مجرى ماء . تجرى على أرض زلقة . تسمع حفيف خطواتها . . ثمة مركب ما رابضة على سطح الماء . بجوارها معبر خشبى . تمد ساقها تضغط على المعبر . يتأرجح على صفحة الماء . تحاول أن تحفظ توازنها . تتلاطم أمواج الماء حولها . يجذب التيار المعبر إلى عمق الماء . لكنها تتلقف حافة المركب المجاورة بكل قوتها . . تسمع المراكبى يصيح محذرًا : المياه عميقة . . خادعة . .

تذرو الرياح صيحاته . . ثمة يقين داخلى . عميق . « لن أغرق . . لن

أغرق » . . تقفز إلى المركب بثقة . تكاد تنقلب . تكتشف أن المركب من نوع مختلف . . مسطح طويل ، ليس له جوانب تحميه . . يتمايل المركب قليلا . يستكين على سطح الماء . . ينهض المراكبي العجوز . . يتمدد على جانبه على طول حافة المركب . يرتفع جسمه كجدار للمركب . .

هل يحميها ؟!

تدهمها موجة عاتية . . يسكن كل شيء .

٢٨ ديسمبر ١٩٨١

رحلة

١

ثمة ثقل غامض يضغط على رئتيه باستمرار ، يتنفس بصعوبة . تلتصق رأسه بالأرض . يحاول أن يفتح عينيه . . تنصب فيهما عنوة بعض أشعة الشمس الحارقة . تفشل المحاولة . ها هى الآلام تخفت . تختفى المسافات.يخف وزنى . يخترق جسدى حاجز الجاذبية . أتحرر . أنطلق . أعلو . أرتفع . أطير . .

قلت لها : طالما كنا معًا . . لا تهمنى قسوة الطقس . .

جففت جبهتها بمنديلها : أتمنى أن نستمر معًا للأبد . . لكن . .

– لكن ؟!

– يجب أن تقابل خالى . . كما وعدت . .

– أهو غنى ؟!

– لديه شركة خاصه . . وعشرات الآلاف من الجنيهات . .

– من أجل هذا . . لا أحب الأغنياء !

يطرق سمعه صوت مرتفع : أتظن الحالة خطيرة ؟!
يجيب آخر : يكفى أن الإصابة فى أكثر من موضع
– لكن دوائر الدماء . . النزيف . .
– مأساة . . لا تخطر على بال . .
– إذن . . لنفعل شيئًا . .

تتوقف الأصوات القريبة . . تظل فى الجو همهمات بعيدة ثمه سائل لزج يتسلل إلى أذنيه . يدغدغها حملقت فيه سوسن مشدوهة . غير مصدقة . فتحت فمها . تجمدت استغاثة عاليه . ترنحت . تهاوت . انهارت . سقطت على ركبتها . انبطحت أرضًا . .

يحاول أن يغلق يده اليمنى . لا تستجيب له أصابعه . ثمة خدر يسرى فى ذراعه يعدل عن المحاولة . . **انكمش على كرسى بجوار الأب . راقبه باهتمام . يقلب المسدس بين يديه . يدلكه . يزيل ما علق به من أتربة بعناية فائقة . . نظر إليه الأب نظرة جانبية : يجب أن يكون المسدس جاهزًا للاستعمال عند الضرورة !**

قاطعها : من أجل هذا . . لا أحب الأغنياء !

يشعر بالبرد الشديد يتخلل عظامه . يرعشه . يختلط لعابه بشىء مرّ المذاق . يتسرب يسيل من فمه . تشكلت على صفحة الماء المضطرمة دوامات قليلة وموجات صغيرة . تلاطمت . تدافعت . تضاربت . تقاطعت . تمددت . اتسعت . طالت . تلاشت فى العدم . **قال صديق الطفولة :**

عندى لك عرض مغر . . للعمل معى فى السعودية . .

هزّ رأسه معتذرًا : تعرفنى . . لا أفكر فى الاغتراب من أجل المال .

تنتشر . . تفوح فى الجو رائحة عطن . . تتغلغل فى أنفه دون هوادة . لا يستطيع إيقافها . تخترق شعبتيه الهوائيتين . تملأ رئتيه حتى الانفجار . . **قال الخال : ماذا تملك . . أقصد ماذا تعمل ؟**

– بنفس شركة سوسن . . فى الإدارة المالية . .

– و . . .

– سأسافر قريبًا للسعودية لأعمل . . وأكون نفسى . .

– إذن نرجىء موضوع الخطبة . . حتى تعود . .

ينتبه على صوت منفعل : يا للسماء . . الدماء . . الدماء تغرق كل شىء .

– كيف ننقله إلى سيارة الإسعاف ؟

– نلفه أولا ببعض الأربطة والضمادات بسرعة . . ثم نرفعه بحذر إلى السيارة .

تندفع الأيدى تحت إبطيه ، حول رأسه . يشعر بضغط الأربطة بطبقاتها الرقيقة ، المتتالية . تغيم الدنيا أمام ناظريه . . يسقط فى تيه الظلمات . يرتفع عن الأرض . . هل يهبطون بى إلى باطن القبر ؟! . . **أيقظته الأم من نومه . نهض فزعًا . رأى الوجوه متجهمة . الملابس سوداء . الضوء شاحب . .**

قالت الأم : اجلس عند جارتنا . . سنخلى الحجرة الآن .

جذبته الجارة من يده إلى الشقة المجاورة . كانت يدها باردة . صرخت عمته حال رؤيته : أبوك مات يا ضنايا . . أبوك مات . .

ينبثق من أغوار رئتيه نصل حاد . يمزق ما يعترضه بقسوة . يصرخ بكل قوته . تتعثر فى فمه حشرجة ألم رهيب ، قاتل . . **قال الأب : يجب أن يكون المسدس جاهزًا للاستعمال عند الضرورة .**

٢

تسرى اهتزازات السيارة المنتظمة – خلال حركتها – إلى جسده . يتأرجح . تضغط عليه الأربطة . تكاد تخنقه . . **قالت الأم** : **يا ابنى يجب أن تحتمل وتذاكر . . حتى تحصل على دبلوم التجارة . . فتعمل . .**

قال الخال : **ماذا تغير . . حتى تشرفنى ثانية بهذه الزيارة ؟**

يركز جهده . يحاول أن يفتح عينيه . تنفرجان بفتحة صغيرة . بصيص من ضوء النهار يتسلل من زجاج السيارة الداكن . . **قال بأسى** : **كنت أتمنى أن نخرج معًا فى النور . . قبل سفرى . .**

همست : **وأنا أيضًا . .**

– إذن . .

– لابد أن تقابل خالى . .

– أأقتحم عرين الوحش مرتين ؟!

– حتى نكون معًا . . يهون الصعب .

–لا مفر إذن من ركوب الصعب .

تستطيل أمام بصره جوانب السيارة البيضاء . تستقيم . تتحول إلى حوائط . ثم إلى أسوار مرتفعة باهته الطلاء . تحاصرنى . تعزلنى داخلها وسط كتبى وأشعارى . وحيدًا ، منزويًا ، ساهمًا . .

يؤلمه إرهاق عينيه .. يستسلم بغمضها يرتاح .. **قال الأب** .. **يجب أن يكون المسدس جاهزًا للاستعمال عند الضرورة .**

تستمر السيارة فى مسارها . تهتز بانتظام .. **قال الخال : أنت تعرف ظروف عملى .. مشغولياتى . .**

– وأنا لن أطيل . .

رنا الرجل إليه بعينين ثاقبتين : كلى آذان صاغية . .

– سوسن . .

– ثانية ؟!

– ليس لى موضوع غيره .

نهض الخال : أرجوك . . ماذا تغير . . حتى تشرفنى ثانية بهذه الزيارة ؟!

يحاول تحريك ساقه اليسرى . يحسها متحجرة ، كأنها ملتصقة بالنقالة . مسجاة عليها . كانت سوسن فى مواجهتى . فجأة انفصلت عن الأرض ، ارتفعت . أمسكت بى بعينين مذعورتين . طارت لأعلى . ترنحت . هوت . تكومت على الأرض بلا حراك .

تسرى البرودة فى جسده . تثلج أطرافه . . **قال لأمه : لا أحتمل البرد الشديد .**

– ذاكر فى سرير أخيك الأكبر . . ستشعر بالدفء .

– لكنى خائف . . لا أستطيع . . أخى مات منذ مدة . .

مقاطعة بإصرار : ذاكر فى سرير أخيك . . أسرع .

يصفو ذهنه . تبهت آلامه . تكاد تندثر . عدا ومضات ناغرة ، تتكرر بين الحين والحين . . **قال لها : من أجل هذا . . لا أحب الأغنياء !**

تتوقف السيارة فجأة . يدهمه شلال من الضوء الجارف تتفجر داخله آلاف من ينابيع الألم حارة . متدفقة . يكاد يتدحرج . يسقط من رقدته . .

اقترب من سوسن توقفت . تطلعت إليه . فجأة ارتفعت فى الهواء . طارت مرعوبة . ثم عادت تتلوى . تتأوه . تكبت آلامًا لا تطاق . فتهوى من عل . تنهار على الأرض جاحظة العينين .

٣

يفتح باب السيارة الخلفى . يندفع أحد الممرضين للداخل . يقول الممرض الأول . كمن يحدث نفسه : نضح الدم من كل الأربطة . . يبدو النزيف مستمرًا . .

– ماذا حدث ؟

– مأساة مروعة . . قتل زميلته . . وحاول الانتحار . .

– لماذا ؟

– لا يعلم الحقيقة إلا الله ! .

١٧ يونية ١٩٨١

استغاثة

« إلى من أتحدث اليوم ؟ . . فنى الوقت الذى يجب أن يثير فيه سلوك المرء سخطًا ، نراه يبعث السرور أيضًا ، وفى الوقت الذى يستحق فيه السارق الجلد بالسوط ، نراه يكافأ بالثروة والشهرة » .

الفيلسوف إبوور

نظرة أولية سريعة :

يتسرب ضوء خافت من زجاج باب الغرفة الجانبية المحكم الإغلاق . يتلاشى عند الجالسين فى الردهة المجاورة ، الذين يتجمعون فى قعدة مسترخية ، يشكلون دائرة متعرجة حول مائدة مستديرة . تلمع عيونهم فى الظلام – كالقطط المتربصة – على وهج السجائر المحترقة . . يثرثرون ، يلوحون ، يتناقشون ، تتلاحق أصواتهم تارة حتى الصراخ ، تختصر تارة أخرى حتى الهمس ، كأنهم فى عزلة عن العالم الخارجى . يلفهم الظلام ، يحصرهم فى

غلالة من الغموض ، حتى يبدوا كأشباح ضالة ، لا تنتمى لعالم البشر . .

فجأة تدوى فى المكان صرخة حادة ، رفيعة ، طويلة ، تتأوه ، تتألم ، تستغيث ، تبتلع صخب المكان ، فتتصلب الأجسام ، تشرئب الرءوس ، تتركز العيون حائرة ، مستفسرة على باب الحجرة الجانبية المغلق . .

نظرة فاحصة :

يعلق العم بصوته العميق الخشن : الموقف صعب . . صعب يا إخوانى . .

ينهض الزوج كالملدوغ يسحق سيجارته ، يطفئها بعصبية ، يمشى ذهابًا وإيابًا . يهمس لنفسه . أكثر من حديثه للجماعة : لوكنت أستطيع شيئًا . . لو كنت . .

الصديق يدير عينيه بين الثلاثة مراقبًا ، محاولا البحث عن كلمة مناسبة يسد بها فراغ الصمت . يتوقف مبهورًا على الأخ المنهمك فى قزقزة اللب بصوت مسموع . كأن ما يجرى حوله لا يهمه . .

تتلاقى النظرات . يضحك الأخ : فترة صعبة . . وتعدى . .

يمدد الأخ ساقيه . يتثاءب : الواحد تعبان على الآخر . .

يحملق فى الظلام الضارب حولهم ، دون بصيص من ضوء : والدنيا برد . .

يحاذيه الزوج . يبتسم بافتعال . يسأله : تفتكر حصل حاجة ؟

يبصق الأخ قشرة لب من فمه ضاحكًا : كيف أعرف . . كيف أعرف ؟

يقذف الأخ إلى فمه لبة جديدة بلا مبالاة . يجذب العم الزوج من يده : تعال اقعد كل حاجة ستنتهى على خير . . إن شاء الله . .

ينقاد الزوج بهدوء . يجلس . يشعل سيجارة . . يسرح بصره ، يتسلل إلى

الباب المغلق يظل مهمومًا . يحاول العم أن يسرى عنه : سبحان من جمعنا فجأة . . من كان يظن . .

يقاطعه الأخ ساخرًا : نحن نعيش معًا . . عن قرب جدًّا . . لكننا لا نلتقى . .

محلقًا فى الجمع هازئًا : إلّا فى المناسبات السعيدة !

يقتنص الصديق الفرصة ، يشارك : ملعونة مشاغل الحياة . . تلهينا عن التقارب الطبيعى .

فترة صمت قصيرة ، يشد فيها الآذان إليه ، كما اعتاد أن يفعل دائمًا : من يصدق . . من يصدق أن هذه أول مرة أقابل فيها صديق . . هذا الزوج السعيد . . منذ أكثر من سنة . . تصوروا . .

التفت إليه الزوج بنظرة بلهاء ، لا معنى لها ، جذب نفسًا عميقًا من سيجارته نفث دخانها بضيق كمن يحاول أن يزيح ثقلا يجثم على أعماقه ، أو يحاول أن يستوعب كلمات صديقه .

يعود الصديق بحنان : كنا فى الماضى البعيد . . لا نفارق بعضنا مطلقًا . .

يهز الزوج رأسه : صحيح . . هذا صحيح . .

يتدخل العم : هذا حال الدنيا . . لا تمضى على وتيرة واحدة . .

يتوه فى الظلام المجاور : يوم معك . . ويوم عليك . . سبحانه . .

يستمر الصديق : « علاقتنا قديمة . . تاريخها قديم . . جوار فى الطفولة . . جوار فى الدراسة . . نفس الكلية . . نفس الاهتمامات . . »

يقاطعه الزوج مبتسمًا : عدا أنك حظيت بوظيفة كبيرة . . وأصبحت رجلا مهما . . له شأن كبير . . أما أنا . .

يبصق الأخ قشرة لب جديدة ببلادة : أما نحن . . فمن فئة الموظفين . . الغلابا . .

يتحفز الصديق . يتخذ موقف الدفاع بسرعة : ألست موظفًا مثلكم . . انتظر راتب أول الشهر . . كما تنتظرون . .

تشكلت ملامح ابتسامة هزيلة على وجه الأخ . انهمك فى تسليته المفضلة .

تهرب الزوج ، تشاغل بالنظر حوله : لا شك تأخر الوقت جدًّا . .

باندهاش ، كمن يكتشف أمرًا جديدًا : ما أشد الظلام حولنا . .

يعلق العم ، المتلفع بالصمت : انتصف الليل منذ فترة . . واشتد البرد . .

يحاول أن يدفئ يديه فى جيبى بنطلونه : أحسه يتخلل عظامى حتى النخاع . .

ناعيًا نفسه : أصبحت عجوزًا . . يهزه سهر ليلة واحدة . .

يلاحقه الأخ ضاحكًا : من أجل هذا لا أفكر فى الزواج . .

يقهقه الصديق بخبث : لكنه ليس المانع الوحيد . .

تنبثق على حين غرة صيحة ألم جديدة . تتمدد ، تطول ، تشق أحشاء الظلام . تنسحب بآهة هائلة ، تتوهج ، تقبض على الأعماق بقسوة ، ثم تخفت ، تذوى ، تنطفئ . يبتلعها المكان فجأة ، كما لفظها دون توقع

وقفة قصيرة :

يفتح الباب المغلق . تهرول الأخت السمراء من الداخل شاحبة الوجه ، منتفخة العينين . . يفجعها الظلام المسيطر . تتوقف ، تعتاد عيناها الظلمة . تحملق فى الجماعة . تحك جبهتها بشدة كمن تحاول أن تستيقظ : داخل تلك الحجرة . . لا يعرف الفرد مطلقًا إن كان الزمن نهارًا أم ليلا . .

كمن تواسى نفسها : أن يعيش الفرد فى مكان مغلق . . مع الألم وجهًا لوجه . . فهو الجحيم نفسه . .

كمن تقرر حقيقة بصوت واثق بطىء : لن تفكر فى الزمن مطلقًا . . لأنك . . مقيد . . محاصر دائمًا . .

تهز رأسها . تنظر للزوج . ثم إلى بقية الجماعة : لماذا لا تطلبوا لها طبيبًا ؟ . . يفحصها . . ويطمئننا . .

يتصدى الزوج للإجابة : هى تعرف نفسها جيدًا . . تقول لى ذلك . . لا تريد طبيبًا ترفضه تمامًا . .

يسرح مع الضوء الساقط من الباب المفتوح ، المتربع فى مضلع طويل أمامه ، خلال الظلام : إن لديها من الخبرة ما يفوق الوصف . .

يقاطعه الصديق : يجب أن يراها الطبيب . . يجب . .

بنفس النبرات الهادئة ، يستمر الزوج : إنها تقول « إذا احتجت طبيبًا . . سأطلبه منكم » . . وهكذا تمر الأيام وتسوء الحال . .

يستفسر الصديق : إذن . . مما تشكو ؟

– أحيانًا تبدو فى أحسن حال . . وأحيانًا أخرى ترقد فى الفراش أيامًا . . لا تقدر على الحركة . . ثم . . تنهض وحدها . . نشيطة ، معافاة . .

تلح الأخت : يجب أن يراها الطبيب . . عذابها لا يحتمل . .

كأنه لم يسمعها : الأعراض كثيرة . . محيرة . .

يأخذ نفسًا من سيجارته مفكرًا : والآن . . ما قيمة الطبيب . . إذا كان المريض يرفضه أوكان مقتنعًا إنه لا يحتاج إليه ؟ . . ما العمل ؟

يبسمل العم : قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا . .

يخفت صوت الزوج ، كمن يتأمل كلماته : فى الشهور الأخيرة . . لاحظت انتفاخ بطنها . . سألتها . . لم تعطنى إجابة شافية . . فهل . .

توقف الأخ عن قزقزة اللب . تطلع مشدوهًا للزوج : تقصد أن أختى حامل . .

يهز الزوج كتفيه : ربما . .

وإنها قد تلد الليلة . .

— ربما . .

يعاود قزقزة اللب : من كان يظن أنه يعرف شيئًا . . فهو أحمق . .

ترتعش الأخت : الجو هنا بارد . . كيف تحتملونه ؟

تهمس للزوج : أشك فى كلامك كثيرًا . . داخل تلك الحجرة . . يوجد يقين واحد . . أختى تتعذب . .

عادت أدراجها مسرعة . أغلقت الباب بعنف . تنحنح العم : وأدخلوها بسلام . .

لقطة قريبة جدًا من مريضة الحجرة المغلقة :

تنضح العينان بالدموع الصامته . تهتز المشاهد أمامى . يخنقنى الضوء المنسكب فى عينى . أغمضهما على صورة الأخت الصابرة ، الساهرة بجلد . يلسعنى فحيح أنفاسها الساخنة . . انسحب ، ابتعد . أسقط فى ضباب كثيف . بل أتخبط وسط أمواج عاتية . يجذبنى ثقل جسدى نحو القاع . أقاوم بعشوائية رهيبة . أحاول التشبث بأى أمل . يداى تتدافعان فى كل اتجاه . جسدى يتلوى فى كل جانب . ينشد الخلاص . لكن ثقله يزداد ، فأغوص بالتدريج . أسقط

فى أغوار الظلمات اللانهائية . تتجاذبنى أيد كثيرة . تتقاذفنى . أحملق فى الوجوه . . أعرفكم . . أعرفكم . . عشت معكم من قبل . . كنت يومًا بينكم . . على أيديكم كتب خلاصى . . أسأل : لماذا تتركونى . . وأنا مازلت أذكركم ؟!

تدمع العيون . تستدير الوجوه ، حتى لا أرى . أكرر السؤال اليتيم ، يرتد صداه وحيدًا ، دون جواب . .

فجأة ينبثق من أعماق أعماق ألم هائل . أحس نصله الحاد يمزق أحشائى بقسوة جهنمية . تتشرب عيناى الجاحظتان آلاف الأشعة الضوئية المنسكبة فيهما عنوة بفعل الألم . أسمع صوتى الراجف يشق أجواز الصمت ، بصرخة حادة ، طويلة ، تتصل ، تتحرك ، تتوافق مع النصل الذى يقطع أوصالى دون هوادة . . أنشد موتًا منقذًا . . يا ليتنى مت . . اكتشفت أختى منتصبة – مذعورة – فوق . أحاول أن أطمئنها . تبقى شفتاى جامدتين . . صدقينى ليس هذا صوتى . . إنه صوت العذاب . .

لقطة قريبة جدًا من الخارج :

تضج الردهة بالظلام . يسيطر عليها . يحكمها . يعزلها عن العالم المحيط بها . . تحاول أشعة الضوء الواهنة ، المتسللة من الغرفة المغلقة أن تقهره ، لكنها تسعى جاهدة – دون أن تدرى – إلى حتفها ، لتندثر بين طيات الظلام المتراكمة ، دون أن تضىء ملامح الجماعة ، حيث ما يزال النقاش محتدمًا فى موضوعات متفرقة . .

مع أخ ضجر :

يقتلنى الصمت . تسلينى الفرجة . يخنقنى ضيق كالعجز . . أصبح ضجرًا : ماالفائدة ؟ . . نجلس كالعجزة . . وندعها تتعذب . .

كانت فى الانتظار سهرة معربدة ، أعددت لها مع الأحباب منذ أيام . . وعندما اقترب الموعد المنتظر ، فوجئت بالزوج يخطرنى بمرض أختى . . غبى دائمًا . . كيف تأتى له ذكاء اختيار هذا الوقت ليزعجنى فيه ؟ . . ألا يدرى أنى أعرف ، أم يريد أنيسًا لوحدته ؟ . . . ثم ماذا يمكن أن أقدم لها ؟ . . عدا أن أعلن – بأسى – للسهرة الوداع ، برغم أنى أخطرت الزملاء بأنى قد ألحق بهم فى الهزيع الأخير من الليل ، فرعاية الأخت على كل حال واجب . .

– لنحضر طبيبًا . . ليراها . . حتى نطمئن . .

صمتًا أيها الصديق . .

دع المجاملات . واكشف القناع عما ينمو فى الخفاء ، ففى عرفى لا تظل الحقائق أسرارًا يا حضرة الموظف الكبير . . الآن تطالب بالطبيب . . لا ، ليس حبًّا فى الاطمئنان ، إنما هربًا من أى حرج منتظر ، أو سعيًا وراء مزيد من الصفقات المربحة ، أو بحثًا عن الراحة بدلا من الاشتراك فى قعدة لا معنى لها . .

أسفى عليك ، برغم أنى أتفق معك فى عدم جدوى الانتظار . . فهل سيتمخض الليل – البارد ، الموحش – فى النهاية ، عن مولد منقذ لهذا العالم التعس ؟!

اعترافات العم الذى يفضل الصمت :

هراء . . الحاضر محض هراء ، فالحجرة المغلقة قبر . . ونحن نربض فى دهليز الانتظار وفق ترتيب أزلى . . فهل . .

إنى أعرفها . . تعيش حاضرها فى ماضيها العريق . . كانت صحتها محلا للحسد . . توالت انتصاراتها فى كل حين . تحقق لها السبق ، كنا بها مبهورين . . وعندما انقلب الحال تجتر ماضيها العذب بدلا من معاناة واقعها المرير . .

ألست مثلها أحصى الدقائق ، أعد الساعات ، فى دهليز العجز . . حيث تولد الكلمات عقيمة ، وتنمو المناقشات مجدبة . . فالوضع بيّن والحقائق معروفة . . ما قدر سيكون . . فهل نملك للأمور تبديلا أو تغييرًا ؟!

تعليق جانبى :

« من الأفضل أن تنتهى حياة البشر ، فلا حمل ولا ولادة . وإذا قدر للأرض أن تتوقف جلبتها ، وللصراع أن ينعدم . . أفلا تكون هذه نهاية جميلة للجميع ؟! »

نفس الفيلسوف .

مع الصديق الذى يتعجل الرحيل :

ما معنى أن نجلس كمذنبين نتجرع لسعات البرد القارص حتى الثمالة ، بدلا من دفء البت حيث الراحة والأولاد ؟ . . ومالى وهذه المرأة . الزوجة ، الأم

بأمراضها المجهولة والمعروفة . . لم يبق إلا أن أهتم بها . . ألا تكفيني مشاغلى ، وصراعى الضارى لتحسين مركزى ؟

يعتقدون أنى أبله ، لا أفهم . . لكنى أفهم كل شىء ، وأتغاضى أحيانًا بمزاجى . . أحس حسدهم ، حقدهم الرهيب علىّ ، لأنى عرفت سلم الصعود المجهول لهم . . ألا يعرف الزوج أنه دعانى للحضور ، ليس بحكم علاقتى بهم – فهذه قبرتها مصالحنا الكثيرة فى الماضى البعيد – بل حتى تكون سيارتى تحت تصرفهم إذا جد فى الليل أى طارىء . .

إذن لندع الأمور تسير فى مجراها الطبيعى دون غمز ، ولأفكر فى عذر مقبول يتيح لى الانصراف المبكر ، حتى أنعم بقسط وافر من الراحة ، استعدادًا لمقابلات ، وصراعات الغد . . أمّا أن تلد – السيدة المحترمة – أو لا تلد ، فهذه قضية أخرى ، لم يعد يشغلنى أمرها منذ زمن طويل . .

ملحوظة الختام الأخيرة :

يؤكد بعض العالمين ببواطن الأمور ، من الشواهد الظاهرة والخفية ، وما تابعوه من أدلة مرئية ، وسط ظلام الردهة المتراكم ، ومن صيحات العذاب المسموعة ، ومن داخل الغرفة المغلقة . . إن الوقت سيتمخض عن حدث جلل يزلزل أركان الصمت . .

أما كنه هذا الحدث ، وهويته ، وهل هو ميلاد أو موت أو شفاء مؤقت أم نهائى ؟ . . فهم يعلنون فى خشوع : إن الصبر جميل . . وإن فى الانتظار كشف للمجهول ، المرغوب . .

١٣ يناير ١٩٧٥

الحادث . .

١

فى الضحى . . انتشر خبر مصرع خروف العمدة بسرعة ، بين ربوع القرية . . عرف الجميع أن سيارة مندفعة صدمته . . لكن سيارة من وسط السيارات الكثيرة التى تعبر الطريق الزراعى ؟! . . لم يعرف أحد مطلقًا . .

هكذا ضاع دمه ، تفرق بين السيارات . . فحمله بعض المؤمنين – مترحمين عليه – إلى جانب الطريق . مددوه بعيدًا عن الحركة . . وإن ظلت دماؤه خير شاهد على ما حدث . .

٢

عند العصر . . وقف عوضين يرقب جثه الخروف محنقًا . . حرمه الحادث المشئوم من طعام الإفطار متأخرًا – كالعادة – فى دوار العمدة . . أو طعام – عابر – فى دار أى من الفلاحين . . أنهكته كثرة تحركاته طوال النهار بين التجمعات . .

يجرجر قدميه الحافيتين مرهقًا . يشعر بجفاف حلقه . يخوض أحد الحقول . ينزع خصّه . يأكلها بنهم . . فالجوع – كما يقولون – كافر . يميل إلى الترعة . يتوضأ يحس برودة الماء . يرتعش . يجفف يديه – بعد الوضوء – فى جلبابه الوحيد . يعود إلى كوخه المهجور . القائم وسط الحقول ، قريبًا من الطريق . . يصلّى متعجلا.يتمدد على حشية بالأرض . يلتحف بكل ما يمتلك من أغطية ، فالبرد قارص . يسرح تفكيره إلى إحدى الوجبات الدسمة ، التى طالما شم رائحتها . تنبعث من دار العمدة . .

يحاول أن ينام . .

٣

بعد العشاء . . يسبح الطريق فى الظلمات . تحجب السحب وجه السماء . تعصف الرياح الباردة بالمزروعات . . ينكمش الجميع فى دورهم ، ينشدون خدر الدفء الشتوى المستحب . .

بينما أوقد عوضين داخل كوخه نارًا . . كانت رائحة الشواء تتراكم . تتدافع . تتصاعد من كوخه قوية ، عنيفة . تنتشر فى الأجواء المحيطة .

كان عوضين يمضغ لحمًا حقيقيًا ، للمرّة الأولى منذ فترة طويلة . .

كان عوضين سعيدًا . .

١٧ فبراير ١٩٨٢

فى الجو . .

« ما أسوأ الانتظار وسط القيظ ! »

ينظر سالم إلى ساعته ضجرًا – الشمس تلهب العباد . تفجر من الأرض نارًا . يكاد ينصهر . يذوب . يذوى وسط سخونة الأشياء . .

أخيرًا جاءت سلوى . يحملق فيها مستنكرًا . تبادلا تحية غاضبة . سارا متجاورين انخرطا فى زحام المارة فى الشارع العام . لم تحتضن يده يدها . كما اعتاد أن يفعل منذ زمن . .

يلتفت إليها : لماذا تأخرت عن موعدنا ؟!

نظراتها للأمام . شفتاها مزمومتان بإصرار . .

يستطرد : اتفقنا منذ يومين . . أن نلتقى بعد مواعيد الدوام . . ثم تتركينى أنتظر ؟!

يتوقف السائر أمامه فجأة ، يتجه لمحل جانبى . يضطر سالم أن يتريث قليلا . يرقب ساميه . . مستمرة فى اندفاعها . يحسّ بالعرق ينحدر من جبهته إلى عينيه .

يخرج منديله . يجفف العرق أسفل النظارة يهرول وسط حاجز المارة . يلهث . يشعر بالظمأ . يجاورها ثانية . . ثمّة شىء آسر فيها يجذبه إليها . . ربّما تكون شامتها السوداء ، يسار فتحة فمها . . ربما تقاطيع وجهها الدقيقة . . ربّما إباؤها المترفع ، كالمهر الجامح . . ربّما . . ربما كل هذه الأشياء مجتمعة . . وغيرها كثير . .

يتأملها بوله : بالأمس أيضًا . . تأخرت فى العودة للمنزل .

ترتفع ضجة المارة . تتداخل مع هدير الأوتوبيسات تنفلت بينها أبواق السيارات بإلحاح قاتل فى حين تصلى الشمس الجميع نارًا حامية . .

« لو نجلس فى مكان هادىء ، لنتحدث ! »

يفكر سالم . . « فقط لو . . » يمد يده . يتلقف يدها . لكنها تنزع يدها بشراسة . .

ينزّ حرجًا . يقترب منها ثانية : ماذا ضايقك ؟

كأنها لم تسمعه . . يجفف عرقه . يملأ الطنين أذنيه . يخنقه الزحام . . كان بسعده دائمًا أن تكون إلى جواره ، والناس يرمقونه بحسد . .

– لماذا لا تتكلمين ؟!

اللعنة على نون النسوة التى طالما أنعشه سماعها . . ينضح العرق تحت إبطيه . يتسرب . ينحدر على بطنه . . تلتصق ملابسه بجسده . . أصبح ينفث عرقًا . .

– لماذا تعاملينى بكل هذا . .

تتوقف فجأة . ترقبه بهدوء . تضع فى يده دبلتها الذهبيه . تتركه ذاهلا . . وسط ضجيج البشر . .

١٦ فبراير ١٩٨٢

غيوبة ..

تفتح السيدة عينيها .. يغشاهما الضوء المنبعث من مصباح الحجرة . تدير رأسها ببطء . يدخل مجال رؤيتها وجه مألوف . تحاول أن تتعرفه دون جدوى . يطرق سمعها وشوشة سؤال خافت .. تحملق فى الوجه المجاور بإعياء .

– أتطلبين شيئًا يا أمى ؟ !

ترتعش رأسها . تنأى بنظراتها إلى بعيد . . إلى الغيطان المترامية والفضاء الفسيح . . «كانت شجرة توت ضخمة تظلل الدار . نأكل ثمارها . . نلعب بجوارها مع صبيان القرية ! »

– أتطلبين شيئًا يا أمى ؟

تحك وجهها بأصابع عصبية . ترتطم يدها حال عودتها بيده . تتشبث بها بقوة ، كمن تنشد الخلاص . تدهمها نوبة ألم مفاجئ تجحظ عيناها . تمسك بطنها . تتطلع إليه ضارعة ، مذعورة . ينفرج فمها عن آهة ألم طويلة . تتلوى ، تتوه بالعذاب . .

يقدم لها الابن حبّة مسكّنة . تزدردها بسرعة . ترفع عينيها إليه بامتنان . . أراحت رأسها . تنهدت بأسى . سقطت عيناها على الجدران الباهته . . سرحت إلى يوم بعيد . . حين تحركت بنشاط . ساعدت بناتها فى إعداد الوليمة . . فعريس كبرى بناتها وأهله قادمون للغذاء . . يجب أن يكون الطعام مشرفًا . .

تطلق يد ابنها . تكتشفه منكبًّا عليها بقلق . . « قالت لها الداية ضاحكة : الحمد لله . . أنجبت ولدًا . . ماذا ستسمونه ؟! »

تغمض الأم عينيها . تتعرف صوت ابنها الرخيم يرتل القرآن . . « انعقد السرادق . شدّ الخلق على يديها . طيبوا خاطرها بكلمات العزاء . قالت بإصرار : أمر الله . . أن يموت أبو الأولاد قبلى » . .

تشعر بالغطاء يرتفع عليها . يلفها . يحاصرها يحتويها . يبتلعها يغيبها فى الظلمات . . « قالت الأم : إياك أن تذهبى إلى الترعة فى المساء . . هناك غريق . . يختطف عفريته الفتيات الصغيرات . . »

تبعد الغطاء بغضب . تصرخ : لن أذهب إلى الترعة مطلقًا . . صدقينى !

يربت الابن على كتفها بحنان : ليلطف بها الله . . و يشفيها من تليّف الكبد !

يجذب الغطاء ثانية عليها بهدوء . يرتفع شخيرها المنتظم . . « تجرى وسط الظلمات . تتخبط بين الجدران . تلهث . تطرق أبوابًا مغلقة . . تفجعها وحدتها . تتوقف . تنصت . تنتظر . تتوقع طرقات زائر ما . . بفرح صبيانى تنتظر . . »

يتمدد الابن على كرسيه مجهدًا ، متوترًا . يرنو إليها داعيًا . . « تتنقل الأم . تدب فرحة بين الحقول . تهرول . تنطلق . تتنفس بحرية . . »

١٣ فبراير ١٩٨٢

ليلة أخرى . .

البداية :

فجأة تشعر العجوز أنها تنسلخ عما يحيط بها . ترتفع . تبتعد . تطير . تهبط فى وادى مهجور . . وحيدة . . وسط أراضى مالحة . وما من شجرة تستظل بها . .

– البقية فى حياتك . . يا أمنّا . .

تتعلق العجوز بوجوه الجيران المحيطة بها . كمن تستغيث . ترقب جدران الحجرة الضيقة تتراجع . تتهاوى . تندمج . تستوى تصبح جزءًا من الأراضى الشاسعة ، الجرداء ، الممتدة بلا نهاية . . تكاد تصرخ . . كان الرجل بالأمس معى . . ككل يوم . . قعيد الفراش . . أطعمه . . أسقيه . . أقضى له حاجته . .

– أمر الله . . يا عمة . .

تنتبه . تلتفت . . تقبض بيدها المعروقة على يد المرأة . تتشبث بها كالمنقذ : أخوك . . رحل . . يا بهيجة !

تقترب بهيجة . تكاد تلتصق بالعجوز . تربت على كتفها : الصبر . . الصبر يا عمة . .

تتطلع إليها العجوز . . كيف ينمو نبات الصبّار فى الصحراء . . كيف يظل حيًّا . . برغم قسوة الجو ، وندرة الماء . . ثم يطالبونه أيضًا بالصبر . . كيف يصبر . . كيف ؟!

تجلسان متجاورتين . تهمس بهيجة : سيأتى أهل القرية . . ومعارف زوجى . . سرادق الليلة . . يجب أن يكون كبيرًا . .

تحملق فيها العجوز . يشّع الغنى من ملابسها السوداء . . يتكور شبحها الأسود . يتحول إلى جذع شجرة ضخم . قوى ينتصب وحيدًا أمام الدار . كم أنست العجوز له وهى طفلة . كم تعلقت به ، دون سبب معلوم .

تعود بهيجة تردد : السرادق والمقرىء . .

تقاطعها العجوز : لن أقيم أى ليلة . . الدفن تمّ . . ومضى كل لحاله . .

كان جذع الشجرة المبتور ملاذى . ألهو بجواره أخبىء عنده حاجياتى . أمتطيه إلى بلاد الحواديت البعيدة . . ثم افترقنا . . وهل يبقى شىء على حاله ؟!

– لو كان له ولد . . كان قام بالواجب ! !

يتضاعف الألم . تختنق العينان بالدموع . . سامحك الله يا امرأة . . المواجع تفوق الوصف . . فى بداية زواجنا فى القرية . . أنجبت ولدًا . . مات بعد شهرين . . لم أنجب بعدها مطلقا . . قالوا : أجدبت الأرض . . ولم تعد تصلح للسكنى . . نصحوه بالزواج من أخرى . . رفض . . هاجرنا بعدها من القرية ، إلى أعماق القاهرة . .

تستمر بهيجة : نصف الفدان الذى تملكيه بالقرية . . ما فائدته الآن ؟ . . . بيعيه . .

كانت الأرض خصبة من أجود الأراضى . إرث أب عن جد . رفض الزوج بيعها بأى ثمن . اعتمد على قوة ذراعه للعمل بالقاهرة . . كان يحلم دومًا بالعودة للقرية . . لكن المرض لم يمهله . .

– شرّفى رَجلك . . يا عمة .

سيتوافد المشيعون الآن من أبناء القرية والمدينة . . وخلال فترة مرضه الطويلة ، لم يسأل عنه أحد . . ولا جدوى للاحتياط ، فلن تنبت الأراضى البور إلّا العدم . .

تكفكف العجوز دموعها . تموء بإصرار : سأقيم للراحل ليلة تليق به . .

ومضى شهران :

تحاول العجوز أن تمدد ساقيها . لا تقدر على تحريكها . . تسقط نظراتها على باب الحجرة المغلق . . جذبها أبوها – ذات مرة – من أذنها بقسوة : إياك والذهاب إلى الأراضى البور . . إنها مناطق مهجورة . . لا تصلح لشىء . . ولا يقترب منها إنسان . .

تتناول رشفة ماء من كوب مجاور للسرير . . يجب أن أنهض . . أن أعاود بيع الخبز الطازج . الصابون ، وبعض الحلوى . . لأسدد دين ليلة المأتم . . وأعيش . .

تتحامل العجوز . تحاول أن تنهض . تفشل محاولتها . . لم أمرض مطلقًا

خلال مرضه . . بعد رحيله انهرت . . أملحت الأرض الخصبة . .

تاهت عيناها . انتقلت إلى القرية . حطّت ببطء على الأراضى الرحبة ، الممتدة ، بلا نهاية .

٦ ديسمبر ١٩٨٠

الانتظار مرتان . .

«كان لابد أن أسبقهم ، حتى يكون القبر معدا لاستقبال جثمان أمى ! » .

يمدد زكى الرومى ساقية . يصطدمان بسور المقبرة . تزوغ نظراته فى الخلاء المجاور . .

يشعل راعى المقابر سيجارة : هل سيتأخرون ؟ !

تستقر نظرات زكى الرومى على نبات الصبار الصامد وسط الرمال : أبدا . . سيحضرون حالا .

تتحرك عيناه . تتلوى وراء سحلية تختبئ خلف الأحجار . . « وهل يستطيعون أن يتأخروا . . حتى لو أرادوا ؟ ! » .

يحملق زكى بالرمال . . «لكنها تعصف به . تطويه . تذروه فى الرياح الصاخبة . يسقط على أرض صلبه برفق زائد . يجد أمه بين يديه ، تستعطفه : يابنى . . أين الطبيب ؟ . . أين الطبيب ؟ ! » .

يجذب راعى المقابر نفسا عميقا من سيجارته : فى المقابر . . يتساوى

الجميع .. الوزير والفقير ..

يستدير إلى حفار القبور ، الرابض بجواره على الأرض يصرخ فيه : هل فتحت مقبرة التاجر الكبير .. موعده الواحدة ظهرا .. أخطرونى أن جنازته ستشيع من جامع عمر مكرم فى الثانية عشرة والنصف ..

تتناثر الكلمات وسط الصمت .. « أمه بين يديه . خفّ ثقلها . لا يستطيع أن يقبض عليها . ترتفع فوقها . تطير . تندفع خلف السياج . ينطلق وراءها . يلاحقها .. » .

– إذا جاء التاجر .. يجب أن نكون مستعدين !

« يحاول أن يمسك أمه . يقبض على الفراغ . يتوقف مذهولا . يتكور . يتقوقع . يتدحرج . يهوى من ارتفاع شاهق . يتلوى . يتأوه مرعوبا وسط الظلام . يفجعه صوت أمه الواهن : ما جدوى إنتظارنا كل هذا الوقت بالمستشفى .. النزيف مستمر .. » .

ينظر راعى المقابر فى ساعته : هل سيتأخرون ؟ !

« يحتوى جسد أمه بين ذراعيه . يحتضها بقسوة . تتسرب من يديه بقوة خفية . تتمايل . تتعثر . تبتعد . يمد يديه عبثا . يهرول وراءها . يتبعها فى تيه الظلمات . بين السراديب والحجرات .. يصفعه صوتها الواهن . تنتحب : أين الطبيب ؟ .. أين ؟ .. » .

يكرر الرجل سؤاله . يهزّ زكى رأسه نفيا .. « يتوقف فجأة . يكاد يرتطم بباب مغلق . ينقب بعينيه فى الأركان المظلمة . يفتش . يبحث عن الأم المفقودة . يدفع الباب بقوة . ينهاوى الباب . تداهمه أمواج الدم القانى . تحاصره . يخوض فيها كالمجنون . يجرى . يهرب . يقع . يصدمه عطن الدماء .

يكاد يتقيأ . يغلق فمه بيده . يقاوم . يتخبط . يلمس جسدا بشريا . يجذبه . ينخلع ذراع بيده . يكتشف أمه تضرع إليه : يا بنى النزيف مستمر .. أين الطبيب ؟ .. أين .. » .

– أستاذ زكى .. أستاذ .. الجماعة وصلوا ..

ينتبه زكى . يملأ عينيه جمع المشيعين .. يقول حفار القبور لراعى المقابر : جنازة التاجر وصلت أيضا .. يا حاج ..

يتقهقر الحاج معه . ينزوى . تتعلق نظرات زكى بالعربة السوداء ، حيث جثمان الأم . يشعر بيد تهز كتفه بعنف : أين راعى المقابر .. أين رجاله ؟ .

يتلفت زكى حوله حائرا : كان هنا منذ لحظات ...

أيقن فجأة أن الرجل أعطى الأولوية لدفن التاجر .. وأن عليهم الانتظار – مرة أخرى – وسط الصمت والخلاء والقبر المفتوح .

٦ يناير ١٩٨١

الفضلات . .

١

« يومض ضوء جانبى . يتدفق – من خلفها – شلال أشعة ضوئية . يسقط على أرض الطريق . يزيل الظلام . يسود الهدوء . . تتهادى ببطء . . تتمخطر بدلال . تمسك بها أبصار المارة . تلاحقها كلمات غزل رقيق ، تختلط بدقات حذائها المنتظمة . . »

– نرجس . . نرجس . .

تشعر بيد تهز كتفها . تبتسم . « تغير من مسارها . يتطاير شعرها فى الهواء . يتماوج . ينساب برقة . تتخلله نسمات ندية ، يستوى ثانية ، يحنو على كتفيها . يلتصق بهما . كعاشق يتعبد . . »

– صح النوم يا نرجس . . إصح يا بنتى !

تفتح عينيها . تحملق فى الأم المنحنية فوقها ، غير مصدقة . ترقب أشعة الشمس تنساب من نافذة الحجرة الوحيدة ، توقن أن الصباح حلّ منذ فترة . .

« أكان حلما ؟! »

تهمس الأم : أبوك مريض . . حاول أن يخرج للعمل . . لم يستطع . .

تنظر إلى أمها بثبات . . أبونا مريض . . ربما . . لكن العربة . . أكوام الفضلات . النفايات . . فى الانتظار . . فماذا تقترحين ؟!

تحتج نرجس : لا أستطيع دفع العربة وحدى !

— إطمئنى . . ستكون معك كريمة . .

تغادرها الأم . تلتفت إلى الأب .. كان مستلقيًا على الطاولة الخشبية . أو مادرجوا على تسميته سريرًا ، وهو — فى حقيقة الأمر — لوحين كبيرين من خشب الصناديق ، مغطى بسجادة قديمة ، وبقايا بطانية . ساقه اليمنى مدلاة ، تكاد تلامس الأرض . . « معك يا أبى . . كانت ساقاى تتدليان من العربة ، تكادان أن تلامسا ذيل الحمار ، خلال إهتزازاتها المتكررة . . فى رحلتك اليوميه ، المبكرة ، إلى قلب المدينة . كنت تمد يدك كل فترة ، تزن جلستى ، خشية السقوط المفاجىء » .

تهز كريمة . تحاول إيقاظها . . « أف . . عملتها الملعونة ثانية — خلال نومها الثقيل — على جلبابى الوحيد .. لولا نومها ، لنالت صفعة أو لكمة ، لا تشف الغليل » .

تنتصب كريمة ، فى العاشر من عمرها ، تجلس مذعورة . تهدؤها : أبونا مريض . . أمنا قالت . . سنخرج بعربة الزبالة . . اليوم معا . .

تنهض نرجس . تفرد جلبابها بيدها . تلمس الجزء المبتل بغيظ حارق . تتخطى إخوتها النائمين على حصيرة قديمة على الأرض . . « مشت وحيدة وسط الطريق اللامع النظيف . . » .

تهزّ رأسها بقسوة . تطرد من رأسها بقايا حلم الصباح . تقلّد أباها : يا فتاح يا عليم . .

٢

يمتد الشارع الكبير – وسط الحى الراق – عميقًا بلا حدود . أمكن للفتاتين بكل صعوبة ، أن يظفرا بمكان لعربة الزبالة بجوار الرصيف . محاصرتين بفيض من السيارات المنتظرة . أرخت نرجس مخلاة التبن للحمار . . « هنا أشعر بالرهبة . يجتاحنى خوف مبهم » تدلك رقبة الحمار . . « مكاننا ليس هنا . غريبة وسط غرباء . كتل بشرية متراصة . تندفع فى كل إتجاه » .

تجذب القفة من داخل العربة : لو ننتهى سريعًا . . ونعود . .

تدخل أول عمارة . . ستصعد للدور الرابع . لا تستطيع أن تركب المصعد . تسمع فحيح صندلها على السلالم خلال صعودها . . « لماذا مرضت يا أبى ؟ . . لماذا . . لو لم تمرض ، لكنت الآن أمرح بين أترابى فى الحارة نلهو ، نلعب لا نعود ، إلّا إذا نادت أمى لشراء الفول والعيش لإفطارنا »

تحمل القفة على ظهرها . . تصعد . . سلالم عريضة ، صفراء ، نظيفة . ليست متهدمة أو متآكلة . درابزين السلم حديدى مطلى بدهان قاتم ليس فيه جزء دون حاجز . يعبق المكان بشذى عطر . لا تنضح منه روائح عطنه . أمام كل شقة علبة أو سلة مهملات خاصة . لا تتناثر الفضلات فى أى مكان . .

تصل إلى الطابق الأخير . تلهث . تستند إلى الدرابزين . تتنفس بعمق . تنظر للأبواب المغلقة . سته . . سته شقق بالدور الواحد . . تتحرك نحو أول باب . تفرد قفتها تفرغ فيها محتويات علبة الزبالة . . تتحرك للتاليه . . « يبدو أن

ساكنيها لم يخرجوا فضلات ومهملات اليوم الماضى . هل نسوا ؟ » . . تضغط جرس الباب . لا حركة.لا رد . تضغط ثانيه . يتكرر الصمت تتجه للباب الثالث . تجذب القفة على الارض ، تفرغ فيها محتويات السلة البلاستيك . . « هل سأصعد إلى هذا الطابق مرة أخرى ؟! . . آه لولا مرضك المفاجىء يا أبى ، لكنت الآن مع جارنا زينهم . . نجرى نختبىء داخل إحدى الحجرات . . وربما لعبنا عريس وعروسة ! »

تجرجر القفة للباب التالى . تفرغ سلته بسرعة . ترقب القفة التى بدأت تفيض بمحتوياتها بأسى . . « سأصعد لهذا الطابق مرة أخرى لا محالة ! »

تحمل القفة فوق رأسها بصعوبه . تهبط السلالم بحذر . تمر بجوارها تلميذة فى زيها المدرسى . بحقيبتها الممتلئة . . « لو كنت تعلمت . . هل . . أبدًا . . فحتى الرابعة الابتدائية . . لم أعرف كيف أكتب اسمى بوضوح . . ثم بدأ الأمر بمرض أمى لفترة . . فانقطعت لرعايتها . . أصبح الانقطاع عادة . . صارت الحارة بديلا للمدرسة . . »

تستمر نرجس ، تهبط ببطء ، بثقة . .

٣

تلتقى الأختان . تفرغ كل منهما محتويات قفتها فى العربة تنبعث رائحة الفضلات فجة ، مقبضة . . من طول التآلف معها . لم تعد تثير الضيق . أو تبعث القرف . . ربّما فيها بقايا قيء شخص ما . طعام حامض . . لكن تقفز زجاجة ما جذابة الألوان . تلتقطها عيناها المدربتان من بين كم المهملات . تمسحها نرجس فى جلبابها . تزيل ما علق بها . عليها صورة فتاة جميلة تمشط

شعرها الطويل ، الناعم . . « ومض ضوء دافق . مشت متأنية » ، تمتد يدها اليسرى تلقائيًا تسوى شعرها الأشعث النافر . . « انطلق صوت واثق : أنت أيضًا يمكنك أن يكون شعرك ناعمًا كالحرير . . إذا استعملت . . » تفتح غطاء الزجاجة . . مبهورة بالسائل الساكن فى قاعها تملأ عينيها صورة الفتاة الجميلة . ترفع الزجاجة لأعلى مسلوبة الإرادة . . « نفس الصوت : أنت أيضًا يمكنك . . »

تميل الزجاجة عند مفرق شعرها . ينسكب السائل ببطء . . قالت الأم : الكيروسين خير منظف للشعر . . تشعر بطراوة السائل اللزج يتخلل شعرها . . « لاحقتها كلمات غزل رقيق » .

تخطف كريمة منها الزجاجة . تفرغ بقية محتوياتها على رأسها . تحك نرجس منطقة الشعر التى غمرها السائل بشده . صورة الفتاة المبتسمة ، بشعرها الطويل تملأ خيالها . . كانت تتمخطر بانسجام . . فهل شاء لها الحظ أن يتحقق حلمها ؟!

٤

تتبادل الفتاتان النظر . على شعر كل منهما رقعة عريضة . مبللة ، داكنة ، تحكّها كل منهما بشدة ، كأنها مصباح علاء الدين السحرى . . وسط حركة الشارع العنيفة ، الضاربة ، المستمرة .

٢٩ مايو ١٩٨١

سيّدة عند النهر . .

« إذا زرت مدينة ما . . فاحرص ألّا يخدعك وجهها المألوف . . بل ابحث – بين الأحراش – عن وجهها الحقيق ، المجهول ! »

من مذكرات رحالة مصرى قديم .

لقطة من بعيد :

يمتد الطريق الواسع ، الجديد ، يتلوى . . ينحنى موازيًا للنهر . تلهب أرضه شمس أغسطس الحارقة . تندفع عليها السيارات مسرعة . تتناثر على جانبه عمارات شاهقة . تتخللها بعض البيوت القديمة . فى حين يلتهم النهر – على الجانب الآخر – أشعة الشمس النارية ، لتستكين وادعة بين جنباته . . خلال مسيرته الهادئة الوادعة . .

الاقتراب من النهر :

تخوض سيدة فى ماء النهر بساقها اليمنى . تملأ الكوز ماءً بيدها اليسرى .

تعتدل تصب الماء على جسم طفلتها العارى . تدلكه بالصابون . .

تصرخ فى وجه ابنتها : اعتدلى يا شقية . . !

لابد دومًا من الشجار . . بلسانك تكسب مكانك . . حتى هذا الجزء من ضفة النهر ، برغم تكرار الحضور إليه يوميًا ، للغسيل والاغتسال . . تتعمد بعض الجارات احتلاله . . فلتعتدلى – إذن – يا بنية ، حتى ننهى – عملنا ، ونرتاح !

تجذب شعر الطفلة . تغرقه برغوة الصابونة : إغمضى عينيك . .

تسقط نظراتها تلقائيًا على الأجسام البشرية المزروعة حولها . . فتيات وسيدات – من الجيران – يغسلن أوعية وأطباق الطعام فى ماء النهر . يتحركن بنشاط . يستفدن من وفرة الماء . . فحنفية الحى الحكومية بعيدة . . ومن لديها الوقت والجهد لتحمل الماء إلى حجرتها ؟! . رحم الله أيام السقا فى الأيام الغابرة . . كما تحكيها أمى المريضة . .

تربت على شعر الطفلة : اخفضى رأسك . .

تخوض سيدة فى الماء ثانية . تسرع بملأ الكوز . تفرغه على شعر الطفلة . تحك رأسها بشدة . يتطاير رذاذ الماء . يغمر ملابسها التى إبتل أسفلها . . تشعر بنظرات شاب يصطاد السمك ، بقربها تلسعها . . لا تهتم . . يجب أن ينتهى استحمام نعمات ومحمود على عجل ، كما انتهى غسيل وشطف الملابس المتسخة منذ فترة فاليوم لى . . والأيام الأخرى للآخرين !

تكرر ملء الكوز عدّة مرات . تدلك جسم الطفلة فى أثناء صب الماء لتزيل بقايا الصابون العالقة به بقسوة . .

– محمود . . أعطنى الجلباب الجاف . . الجلباب يا ولد . .

تتناول الجلباب من محمود تجفف به الصغيرة . . وأنت يا حبيبة . . تحتاجين مريلتين وحذاءً للمدرسة . . وأخوك لجلباب . . من أين أشتريهم ؟! . . من أين ؟!

– اقلع يا ولد . . وتعال . . بجوارى . .

تجذب هذا المحمود ناحيتها . تجرده من جلبابه الصغير . . وعلى الأم المريضة – قعيدة الحصيرة المهترئة – الدور للاستحمام . . لكن الوقت بالكاد يكفى تنظيف الحجرة والطبخ والعمل فى بيوت الآخرين . .

– إلبسى بسرعة يا نعمات . .

تمتد يدها المدربه بالماء والصابون . تضربه على إليته بقوة : اثبت فى مكانك . . لا تتحرك حتى أنتهى . .

تغمر شعره بالصابون . تحكّه بشدة . . تمشيط الشعر همّ آخر بعد الاستحمام . . وبقليل من الكيروسين فى مفرق الشعر تتم نظافته . وأمام باب البيت فى ضوء الشمس هو المكان المنتظر !

يحاول الصغير أن يتملص من يدها . تتعثر . تكاد تقع . تتماسك . تغرز ساقيها بين الأحجار . تحس الطين الناعم يتخلل أصابع قدميها . . هل قدّر لى أن أموت غرقًا . . منذ شهرين – فى نفس المكان – إنزلقت قدم شاب يصطاد السمك . سقط فى النهر . تخبط بين مياهه . ابتلعه الماء . مات غرقًا . . فهل سأموت هنا ؟!

تزدرد لعابها . تحكم قبضتها على الطفل : أستغفر الله . . ربنا ينجينا .

– اغمض عينيك . . واجلس فى الماء . .

ترفع سيدة الطفل بين يديها . تغطسه فى الماء عدة مرات . تزيل رغاوى

الصابون المنتشرة على جسمه ، توقفه فوق الأحجار فى مكان بعيد عن الماء :
جفف نفسك . . والبس جلبابك . .

تخرج من الماء بحرص . يطالعها عرى ولدها وهو يستره بالجلباب . . ما أشد نحافة جسمه . لعل شقاوته الزائدة هى السبب . . فإذا كان الأمر كذلك . . فما السر إذا فى نحافة أخته الهادئة ؟!

تحمل وعاء الغسيل الممتلئ فوق رأسها . تضبط نفس الشاب يحملق فيها . تضغط ناجذيها بعنف . تمسك طفلها بيدها : تعال يا نعمات . . سنعود . .

تمشى بين الأعشاب الشيطانية . تتخطى أكوام القاذورات . تضع وعاء الغسيل على سور النهر . تعبره مع عطيات . . يتحرر الطفل من يدها . يقفز من فوق السور إلى الأرض يجرى إلى سيارة مهجورة فوق الطوار . . يركبها . ترفع سيدة وعاء الغسيل ثانية على رأسها . تبحث عن عطيات . تجدها تلهو مع أخيها فى السيارة القديمة . .

– نعمات . . أحضرى هذا الولد . . لنعبر الطريق . .

تنتظر على حافة الطوار . يغمرها العرق . تلسع سخونة الطوار قدميها الحافيتين . تتنفس بصعوبة تكاد تلهث . ترقب أفواج السيارات . . تتكاثر تتدافع . تتصارع . تزعق أبواقها . تهدر . . تتحين الفرصة بينها لتعبر . . يجب أن أسرع . . دائمًا كثور الساقية . . ماذا يكون غداء اليوم ؟! . . يجب أن أعد أى لقمة . . فلو عاد أبو الأولاد . . ولم يجد طعامه . . تكون المصيبة . . يجب أن . .

تقبض على يد الطفل بعصبية . يضايقها التصاق جلبابها بجسدها : امسكى جلبابى . . الآن . . يا عطيات . .

تنطلق سيدة بحملها ، تعبر الطريق . بيدها صغيرها . . بجلبابها تتشبث عطيات . . وسط القيظ اللافح .

١٩ سبتمبر ١٩٨٠

زمن التحول . .

« يولدون للموت ، ويعمرون للخراب ، ويحرصون على ما يفنى ، ويتركون ما يبقى . . ألا حبذا المكروهان : الموت والفقر . . »

أبو ذر الغفارى

زحام :

تتوقف السيدة بجوار باب عيادة طبيب الأطفال ، المشهور . تلتقط أنفاسها بتأفف . تضبط ياقة البالطو الغالى بيدها . تنادى بعصبية : تعال يا ذكية . .

تقفز إلى جوارها هذه الذكية . تحمل بيدها اليمنى طفلا رضيعًا . تمسك باليد الأخرى ولدًا صغيرًا . .

يدخل الموكب العيادة . يسبقها عطرها الباريسى كإعلان . . تحملق من وراء نظارتها فى الحاضرين . تمرّ على الممرض بإبتسامة مقتضبة : أنا حجزت أمس بالتليفون . .

ينهض الممرض . يقدم لها كرسيه لتجلس . فالزحام على أشده . ثلاث حجرات ممتلئة عن آخرها . تقدم له جنيهات الكشف متضمنة نصيبه الخاص . يسجل اسم الرضيع : أيمن أحمد . . يا أفندم طبعًا . .

تشكره بهزه من رأسها . تجلس . تضع ساقًا على الأخرى . تصرخ فى الشغالة : ادخلى بسيدك بعيدًا عن الهواء . .

تفتح حقيبتها . تخرج علبة السجائر المستوردة . تشعل سيجارة . تسقط نظارتها على أرنبة أنفها . تنقل بصرها بين الحاضرين . تسترخى على الكرسى . . « أف لهذا الزحام . . أزياء الحاضرات حديثة . . لكن ليس فيهن من ترتدى بالطو غالى الثمن مثلى . . أف . . سأظل ساعة على الأقل أحملق فى هذه الوجوه ، حتى يتحرك الممرض . . ويسرق لى موعدًا مبكرًا . . »

تنهض فجأة . تقتحم حجرة الشغالة . تجدها تستند إلى باب البلكونة الخشبى . تنهرها : من أى جنس أنت ؟ . . سيدك يا ذكية . . هل يجب أن أعلمك باستمرار كيف تحمليه ؟ !

تعدّل للوليد لفافته : وتمسكى يد سيدك أكرم .

ذكية لا تنطق . بعينيها حول . تتشبث بيد الطفل . تعود السيدة أدراجها . فجأة ينادى الممرض واحدة من الحجرة . عليها الدور لترى الطبيب طفلها . يخلو مقعد . تتحرك سيدة ببطء . تجلس . تفسح مكانًا إلى جوارها . يجلس الصغير . تتمتم سيدة : الحمد لله . .

انتظار :

تسأم السيدة جلستها . تنظر للممرض نظرة لها مغزاها . يغمض عينيه دليل

فهمه . . قطعًا سأتقدم عدة أدوار . . الخمسين قرشًا تفعل العجب تكاد تصعق الجالس أمامها بنظراتها أف .. لماذا يحكى هذا الرجل حكاية ولده وحيرته فى عدم نموه . . حتى نصحوه بهذا الطبيب المشهور . . أصبح الحضور هنا سداحًا مداحًا . .

تشعل سيجارة أخرى . . لا شك تحسدنى الحاضرات . . أشعر بعيونهن تأكلنى . . وهذه الزفت . . لابد أن أتابعها باستمرار . .

تنهض بعصبية . تكتشف ذكية نائمة تحتضن يداها الرضيع فى حجرها . تهزها بغضب توقظها : مائة مرّة أنبهك . . ودائمًا تنامين . . سيدك أيمن . . فتحى عينيكى عليه .

تلف الرضيع ثانيه . تربت على ولدها الذى نام هو أيضًا . . تعود لمكانها . . « لابد أن أفعل كل شيء بنفسى . . هذه الشغالة لا يعتمد عليها » .

الدور :

كم مضى الوقت . . لا أحد يدرى . ينادى الممرض السيدة . تندفع إلى حجرة الطبيب . تسحبها وراءها . توقظ صغيرها . تمسك بيده . تقتحم حجرة الطبيب بانتصار .

١٠ ديسمبر ١٩٧٨

الوقوف فى المكان الخطأ . .

« هذا العالم كما هو ، لا يحتمل ! »
آلبير كامى

١

تغادر سميحة باب العمارة الحديدى الضخم . . يكاد البواب يلتهمها بعينيه . . تفاجئها برودة الجو . . تحكم ملاءتها السوداء حول جسدها . تغطى بها صغيرها . تنخرط فى الطريق . .

تحسّ ثقل طفلها الرضيع على ذراعها . تحتضنه . تحدث نفسها : سامحك الله أيتها العجوز . . كيف تفكرين ؟!

« قالت العجوز غاضبة : ابنك يوسخ جدران البيت . . يلوث الأثاث الغالى . .

ثم آمرة : لا أريده معك ثانية . .

– أين أتركه يا ست ؟!

– ليست هذه مسئوليتى . . أنت تعملين فتنالين مقابل عملك . . فهل تريدينى دادة لولدك ؟

– لا سمح الله يا ست . . لا سمح الله . . »

تنكس رأسها ، تشعر بجفاف حلقها . يسرى الخدر فى جسدها المرهق . . منذ الصباح الباكر بين الحجرات الخمس . . حركة دائبة لا تهدأ . . « تعالى يا سميحة . . خلف الباب يا سميحة . . هذا الركن أعيدى مسحه . . لا تنس المطبخ . . الأرضية . . »

سلسلة سخيفة من الأوامر لا تنتهى . تتنفس بضيق . . « لا يمكن أن أعتاد هذا العمل مطلقًا . . لا يمكن ! »

تجرجر ساقيها . تنصت لوقع أقدامها . . « قالت الأم : قبل أن نخطو . . يجب أن ننظر أولا . . هكذا علمتنا الأيام » . .

تحاول أن تسرى عن نفسها . . « أين أنت الآن يا أمى ؟ . . كنت حين تتكلمين . أصغى . أفهم . لكن . . »

تجتاحها مسحة حزن لذكرى أمها . تتطلع حولها . . الطريق واسع طويل . تتناثر الأشجار على جانبيه . . تتبدى ذؤابات الأنوار فوق قمم الأشجار . . تتنفس بعمق . . ثمة هواء نقى ، طازج – برغم برودته – يملأ رئتيها . . « الطريق إلى البيت طويل . . لن يجدينى ركوب الأوتوبيس . . فبرغم متاعب الانتظار ، مجرد محطتين . . ثم بقية المسافة . . سيرًا على الأقدام . . إذن فالمسير منذ البداية أفضل » .

يكسر صفير قطار حاجز الصمت . . يرتفع ضجيج حركته . . يؤنس

وحدتها . . توسع سميحة خطواتها برغم التعب . . فقريبًا تعبر قضبان السكك الحديدية ، لينفرج الطريق واضحًا نحو البيت . .

٢

يحاذيها شخص ما . يحملق فيها . يتجاوزها . . ترتعب . . « صفعها سيد بقسوة مفاجئة ، مادت الأرض تحت قدميها ، فجعتها رائحة فمه الكريهة . كادت أن تترنح . . صرخت . استغاثت . . لم تشعر إلا بعينيه الحمراوين تجوسان أعماقها ، بنهم حيوان مفترس . . لسعتها تقلصات أمعائها . . « جنّ الرجل لا محاله . . جنّ الرجل ! »

تتنهد . الهدوء سيد المكان ، لا يقطعه سوى اندفاعات السيارات المسرعة بين الحين والحين . . « لو قتلوا شخصًا فى هذا المكان ما انتبه أحد ! »

ترقب المكان بحذر . تهرول متعجلة . تحاول أن تنسى إرهاق جسدها . .

« قالت لزوجها ذات يوم : أين مصروف البيت ؟

— تصرّفى . .

— لكنك تكسب دخل يومك من الشاى الذى تبيعه للعمال قرب محطة السكك الحديدية . . أليس لى مع مزاجك نصيب ؟

— وتناقشينى ؟! »

تمد يدها اليمنى . . تتحسس ذراعها الأيسر الذى يحتضن وليدها . . « بدأ الأمر بكلمة . صفعة . ركلة . ركلات . . فذراع مكسور بالمستشفى . . »

تنحرف فى طريق مظلم ضيق ، متعرج . ينتهى بقضبان السكك الحديدية . . « قالت لأمها : أيرضيك ما يفعله سيد ؟

هزّت الأم رأسها : عليك بالصبر ! »

أين أنت الآن يا أمى ؟ . . أنصت إليك . أحكى لك . أفضفض ما أنوء بحمله . .

ترفع عينيها إلى السماء ، كمن تستجير . يتناثر نور النجوم هنا وهناك . يطرق السمع وشوشة غصون الأشجار . . تهمس بأسى : هل ترينى . . أو تسمعينى ؟!

٣

وصلت إلى قضبان السكك الحديدية . تعبر المدق من الجزء المكسور من السور ، كعادة أهل الحى . . تتوقف بين القضبان . . وحيدة . . وسط سكون كالعدم . .

يضعف ذراعها الأيسر من الإرهاق يهتز طفلها النائم ، الملاصق لصدرها . يكاد يسقط أرضًا . تحاصره بكلا ذراعيها . تعتصره بعصبية . . « يا ستّار ! » . . تمد قدمها للأمام . تؤرجحها على القضيب المواجه . . ينفتح أمامها فجأة سلم طويل . . ينحدر . يتسع باستمرار . تغوص نهايته فى الظلام . . تتمايل . تترنح . تنزلق تتدحرج تهوى . . يفجعها صوت إرتطامها المتكرر بالسلالم . تحاول أن تستغيث . تكتشف احتباس صوتها . .

تبسمل تزدرد لعابها . تلتفت إلى اليمين . . أضواء المزلقان الشاحبة تتراقص على البعد . أشباح العابرين تطول وتقصر على الممر فى غبشة الليل . .

تنظر أمامها . . خطوات . . تندمج بعدها فى لجّة الحى . . لتشترى عشاءً ما . . ثم إلى الدار . حيث الانتظار . . كم تنتظر حتى يعود سيد ؟ . . ساعه . .

ساعتين . قد يتلقفها النوم مع طفلها قبل مجيئه . . فهل ستغير عودته من الأمر شيئاً ؟!

« لو تركته الآن . . أين أذهب ؟ . . أمي هي الوحيدة التي كان يمكن أن تقبلني . . »

أين أذهب ؟!

تلفحها ريح باردة . . تحبك ملاءتها حول جسدها بحركة لا إرادية . تغلق عينيها . تتحجر وقفتها . . على حين أغلق المزلقان المجاور . . ومن بعيد يرتفع صفير القطار القادم رويدًا . . رويدًا . .

١٦ ديسمبر ١٩٨١

البحث عن مكتب ! !

« مطلوب مكتب مفروش بوسط البلد ! ! »

فكرت طبعًا أن أنشر إعلانًا بهذا النص فى الجرائد . لكنى تراجعت . . أيقنت أن الأمر لا يستحق كل هذا العناء . بالإضافة إلى مشكلة الردود . . كيف تصل إلىّ ؟! . . وأنا لا أملك تليفونًا خاصًا . وبالطبع لا يمكن أن أنشر رقم تليفون المصلحة الحكومية التى أعمل بها كاتبًا للحسابات . . وإلّا تعرضت لمساءلة قانونية . . لا يعلم مداها إلّا الله !

إستشرت زملائى بالعمل . نصحنى عجوز أن ألجأ لأى سمسار . . فلما رجوته أن يذكر لى عنوان أحدهم . . هزّ رأسه مستنكرًا جهلى ، قائلا : إنهم أكثر من الهم على القلب !

هكذا إستعذت بالله . . وقررت أن أبحث عن السمسار فى منطقة وسط البلد سيرًا على الأقدام . . بعد مواعيد العمل الرسمية طبعًا . .

بدأت أتفرس فى الإعلانات المتراكمة. منقبًا عن السمسار المنتظر..

تربض فى جيبى خمسمائة جنيه ، كثقل غامض يدغدغنى ملمسها ، أقبض عليها – بين الحين والحين – فى نوبات مفاجئة ؛ خشية ضياعها ، أو تحسبًا لأى طارىء . . إنه أكبر مبلغ أمسكه فى حياتى الوظيفية كلها . .

أوسع خطواتى متعجلا . . فى مثل هذا الوقت . . أركب الأوتوبيس . أعود لمنزلى . . لم أغيرّ عادتى مطلقًا إلا فى مرات طارئة . . وهى نادرة والحمد لله .

يستوقفنى إعلان عن سمسار مكاتب وشقق مفروشة . يتفرع منه سهم يشير إلى ممر جانبى ألجه مسرعًا . سلسلة من الأسهم الجانبية تتتابع . تشير إلى موقع السمسار . أدخل عمارة ضخمة . أصعد سلمها العريض مهرولا . . أتحسس موضع الجنيهات لأطمئن عليها . إنها أمانة أرسلها لى صديق الدراسة ، الذى يعمل بالكويت منذ سنوات عديدة . . طلب منى تنفيذ عدد من المهام ، على رأسها تأجير مكتب مفروش ، يباشر منه عمله مؤقتًا ، حال عودته لمصر . .

توقفت الأسهم أمام شقة مفتوحة . . دخلت . . فوجئت بعدد من الفتيات يعملن على ثلاث من ماكينات التريكو . . غضضت من بصرى . انتابنى الخجل . كدت أتعثر . . « لعلى أخطأت المكان ! » . . وإذا بصبى صغير يسألنى : أى خدمة يا بيه ؟!

ازدردت لعابى . أومأت : السمسار . .

أشار إلى أن أتبعه إلى الداخل عبر ممر قصير . وصلنا إلى حجرة واسعة . أثاثها فخم . . « لا شك أن هذا الوجيه الذى يتحدث بالتليفون هو السمسار » . . صدق ظنى . . التفت إلىّ بإبتسامة مهذبة : لحظة واحدة . . أعذرنى يا بيه ! . إبتسمت حبورًا . . لقد أصبحت بيهًا . . سألنى بعد المكالمة : أى خدمة ؟

ارتبكت . تماسكت . ربتّ على الأموال بجيبى : أريد تأجير مكتب مفروش بوسط البلد . .

فتح كشكولا أمامه : بوسط البلد . . بوسط البلد . . يوجد مكتبين فى شارع شريف وسليمان . . و . .

قاطعته منفعلا : ممكن أتفرج على أى منهما . .

ابتسم بترحيب شديد : إذا سمحت تملأ هذه الاستمارة . . هتدفع خمسة جنيهات . .

مستدركًا : طبعًا يتم خصمهم عند التعاقد . .

قرأت الاستمارة متأنيًا . . كانت تفويضًا للسمسار ليبحث لى عن مكتب . ملأتها بعناية شديدة . أخرجت بطاقتى كى أكتب رقمها . وقعت فى النهاية بخط واضح .

انتبهت . كان الرجل يراقبنى بعين فاحصة . . « يعجبنى نظامه فى العمل ! » . . أعطيته الجنيهات الخمسة . . صاح : يا على . . يا على . .

حضر على . نفس الصبى الذى أرشدنى للمكتب . . أمره : تفرّج البيه على مكتب سليمان وشريف . . العنوان كتبته لك على هذه الورقه . .

شدّ على يدى بحرارة مودعًا : تفضل يا بيه . .

تفضلت . . وجدت أن كلا المكتبين تم تأجيرهما منذ يومين . رجعت إليه . لم أجده . .

فى اليوم التالى قابلته . إعتذر لى . نادى الصبى . حدّد لى مكتبًا آخر استبشرت خيرًا . لكن صدمتنى نفس النتيجة .

احتجت يومين آخرين . . لأكتشف أنى ضحية نصاب . . وأن على أن أبحث عن طريق آخر . . لأحقق ماكلفنى به صديق عمرى . . برغم أعباء هذا التكليف .

١٥ فبراير ١٩٨٢

فترة حراسة . .

١

يفتح فرع البنك أبوابه للجمهور . يدخل رجلان وسيدة . . كانوا ينتظرون . . يجذب الشرطى – المنوب بحراسة البنك – كرسيه . يضعه بجوار الباب . يجذب خشبة قديمة ، مستطيلة الشكل ، من خلف الباب يضعها أسفل الكرسى . لتعزل برودة الأرض عن قدميه ، يجلس . يمدد قدميه على الخشبة . يشعر بخدر الراحة . . تعاوده صورة ابنه المريض . يتنهد « الأمر لله من قبل ومن بعد . . وهل بيدنا شىء ؟! »

– طبعًا شاى كالعادة . . يا عم عبد الحميد ؟!

ينتبه الشرطى على صيحة فراش البنك . يلتفت.يهز رأسه موافقًا . يتثاءب . يحبك فتحتى البالطو العهدة حول صدره . يظل البلوفر الباهت اللون بارزًا . تتدلى من فتحته ياقة قميص أبيض ، يلطخها العرق المتراكم . .

يرقب الوافدين إلى البنك . سرعان ما ينتظمون فى الطوابير الممتدة أمام

الشبابيك . . « ولجت باب المستشفى فى غبشة الفجر . شرخت دقات حذائى الميرى سكون المستشفى . كان ابنى يعوى ألمًا بين يدىّ . فحصه الطبيب . أعطاه حقنة مسكنة » . .

– من معه النحاسة رقم ٦ . .

يكرر الصراف نداءه . « قطعًا أنهى لها السيد/ عبد الغفور إجراءات الصرف – كدأبه – مبكرًا . . إنه أنشط موظفى البنك لا محالة ! »

تتحرك نفس السيدة التى حضرت عند الفتح إلى الصراف . تقدم إليه النحاسة المطلوبة . يحصى لها نقودها . . عشرات الجنيهات . . « لماذا اختار ابنى الثلث الصعب من الشهر ليمرض فيه ؟! » .

يهزّ رأسه مستنكرًا . تعدّ السيدة نقودها ثانية . تتلفت حولها بحذر . تغادر البنك .

« كانت الأوراق المالية فى البداية تجذب انتباهى . أطير معها إلى أحلام لن تتحقق . . الآن توطدت الألفة مع المكان . لم يعد شيئًا يثير الانتباه . . حتى جمهور المتعاملين يحلّون مشاكلهم بأنفسهم . أو يقوم موظفو البنك بالمطلوب . . فقد يحاول فرد – ذكرًا أو أنثى – أن يتذاكى . أى يستغل الواقفين ليحتل دورًا متقدما فى الطابور . . وهذا النوع يعنفه الواقفون بسرعة ، فيعود أدراجه إلى نهاية الصف . أما النوع الثانى . فهم من يتذمرون من طول الانتظار . . وتكون النتيجة درسًا لهم فى تقبل سلسلة الإجراءات والتوقيعات والمسئوليات ، التى يفنى فيها موظفو البنك أعمارهم » . .

– تفضل الشاى . . يا عم عبد الحميد . .

يتناول الشرطى كوب الشاى من الفراش . يلّف يديه حول الكوب

الساخن . يدفئها . . « قال الطبيب : حرارة ابنك عالية جدًّا . . أنصحك بالذهاب به إلى مستشفى الحميات . . »

يرتشف رشفة شاى . يكتشف عجوزًا تستند إلى الحائط ، مرهقة . كل الأماكن مشغولة . . ينهض الرجل : تفضلى يا أمى . .

تجلس العجوز . تشكره . يقدم لها كوب الشاى : اتفضلى شاى والله !

٢

يؤذن الظهر . ما تزال الحركة تحتدم فى الفرع . يتأمل عبد الحميد الجمع المحتشد بحب . يكبّر بصوت خافت . يغادر الفرع . يتوجه للصلاة فى المسجد القريب . . يتمتم « ربنا يشفيك يا ابنى . . ربنا يشفيك ! » .

١٨ فبراير ١٩٨٢

الدبوس ..

١

لعنت الحظ ألف لعنة . .

كيف أصدق ما جرى ؟! . . لم أتصور مطلقًا ما حدث . . أيكون الأمر وهمًا . أم حلمًا سخيفًا سرعان ما ينتهى . . لكن مناكب الخارجين من محطة مصر تدفعنى . . أجرجر ساقىّ مهزومًا . أنوء بحمل حقيبة أوراق . .

ها هى المشاهد تتكرر تلقائيًا . تتوالى أمامى . . يقظة مبكرة خشية التأخر عن موعد القطار . الانطلاق متعجلا دون إفطار نحو محطة المنيا ، وسط غبشة الفجر . . التعلق بالقطار وهو على وشك أن يتحرك.الاختراق فى العمق وسط الحشر . . تلمست مكانًا وقفت كالبجعة على ساق واحدة . كدت أختنق وسط الجو المغلق والأنفاس اللاهثة . . بقايا النوم فى عينى . . لا فائدة . . العذاب هو الذهاب إليك يا قاهرة . . كم مرة زرتها ؟ . . مرات معدودة . . لكن اليوم . . لا مفر . . يجب أن أبلغ مركز الشركة الرئيسى فى الصباح المبكر . . يجب . .

أسقط فى بهو داخلى كالهوة الواسعة ، أولى هاربًا مع الخارجين من المحطة . أقبض بيدى اليسرى على الجزء الأعلى من البنطلون . فوق الجيب مباشرة . أقبض بعصبية . تلمس يدى ملابسى الداخلية . تكاد سبابتى تلمس جلد ساقى . . أكان لابد أن تقع لى هذه المشكلة ؟! مصاب فادح ومع من ؟! . . البنطلون الوحيد الجديد . . حتى يكون الألم مضاعفًا . . توقف القطار فى المحطة استعدت الجموع بأحمالها . بدأ الدفع . اخترت مكانًا بجوار باب القطار . خمنت أنه سيسهل نزولى . . هبطت . . لا لم أهبط . لوهلة أحسست أنى معلق من جزء ما بباب القطار . يمنع هبوطى . أيدى المسافرين تضغط علىّ . تحررت كالقذيفة . . صوت تمزق ما . لفحة هواء جانبية سرت فى جسدى . مبهورًا ، غير مصدق . تجمدت على رصيف المحطة . انحشر جانب البنطلون بجزء بارز فى باب القطار عند نزولى فتمزق . . مصدومًا . . ظللت أحملق فى البنطلون لا أعى ما حدث . . لكن الجزء الممزق ظل ماثلا أمام ناظرى . كأنه يخرج لى لسانه ، ليغيظنى ! . .

استعذت بالله . . بنطلونى الجديد . . عليه العوض ومنه العوض . . لكن . . ما العمل ؟! بهدوء يجب أن أفكر . . لن يمكننى طبعًا أن أعود ثانية للمنيا ، حتى أغيره . . وإلّا ضاع اليوم ، بكل معاناته هباءً . . وليس لى أقارب فى القاهرة . يمكن أن أجد لديهم حلا سريعًا . . بهدوء يجب أن أفكر . .

٢

كان تمثال رمسيس ينتصب شامخًا جليلا . انحنيت بجواره خجلا . .

أجريت بيدى محاولة ساذجة لرأب الصدع بالبنطلون . باءت بفشل ذريع ..

أخرجت قميصى الأبيض خارج البنطلون ظل جزءٌ كبيرٌ ظاهرًا ، تحت ثنية القميص السفلية . يتسع عند أقل حركة .

أبتعد وجلا عن تمثال طالما شغلته قضايا مصيرية . . لعله يسخر الآن من المصريين الجدد ، ضئيلى الحجم ، ذوى الاهتمامات التافهة . . لكن هل عانى يومًا من تمزق ملبسه الغالى . خارج موطنه ، وهو فى انتظار مقابلة هامه ؟! . أغلب الظن ، كان سيتصرف . . فالملوك لديهم الفرصة – دائمًا – للتصرف . . اشتريت جريدة الصباح . تمشيت ناحية مقهى بالميدان . . اتساع نطاق الحرب بين العراق وإيران . . تزيدها الأيام اشتعالا . . فهل تزيد رقعة الجزء الممزق بمضى الوقت . . هل . .

– شاى حليب . . من فضلك . .

أومأ الجرسون . . ناديته قبل أن يمضى : هل . .

انتظر الرجل . أنصت.ابتلعت سؤالى : الشاى بسرعة وحياتك .

كدت أن أطلب منه دبوسًا . . دبوس . . يا له من إلهام رائع . . ما أريده مجرد دبوس ينقذنى من ورطتى . . أشبك به مؤقتًا الجزء الممزق . .

ما تزال المحلات مغلقة فى الميدان الواسع . . لأفكر بهدوء . . أشرب الشاى أولا . . ثم أتجول بين محلات الميدان . . سأجد بغيتى لا محالة . . ما أسهل الحل . . دبوس . . دبوس !!

٣

بدأت المحلات تفتح أبوابها . . « لأجرب أولا محلات الميدان . . قطعًا

سيتحقق هنا مرادى » . .

معروضات المحل القريب تفوق الوصف . لعب أطفال مزركشة . ملونة . مدلاة خارج وداخل المحل . . أدوات تجميل من مختلف الماركات العالمية المشهورة . أدوات منزلية من مختلف الأصناف . مراوح كهربائية . تلفزيونات . . مكاوى . . مكانس . .

كيف يمكن أن تتجمع فى محل واحد . هذه التوليفة الغريبة ؟!

أقترب من أحد الباعة ساترًا بجريدة الصباح الجزء الممزق . ممسكًا بحقيبتى باليد الأخرى . ابتسم بحرج : هل أجد عندكم دبابيس . .

نظر الرجل إلىّ شذرًا ، هزّ رأسه نفيًا . تركنى نهبًا لتأنيب ضميرى . كيف أسأل عن شىء تافه فى محل فخم كهذا ؟!

غادرت المحل أجرجر أذيال الخيبة . اقتربت من كشك يعرض بعضًا من المنتجات المزخرفة . . صابون مستورد . . سجائر أجنبية . . أمواس حلاقة . . لبان . .

رددت سؤالى ضجرًا : هل أجد عندك دبابيس مشبك ؟!

لم يسمع ، كررت سؤالى . ضحك العجوز : لا وحياتك . . لا يوجد . .

اخترقت شارع رمسيس . . وجدت رجلا يفترش الأرض ببضائعه المتراكمة يصيح بصوته الأجش : بضائع بورسعيد . . بضائع بور سعيد . .

استبشرت خيرًا . . أخيرًا جاء الفرج . .

همست فى أذنه : هل أجد عندك دبابيس ؟!

– نعم . . يا مولانا ؟!

– دبابيس .

رد صارخًا بغضب : لا . . يا مولانا . .

ابتعدت يطاردنى شعور بالذنب . .

٤

برغم كثرة المعروضات وتنوعها فى محلات وأكشاك شارع فؤاد ومنطقة وسط المدينة ، كما يسمونها . . لم أجد لدى أى منها دبابيس من أى نوع . . تذكرت شعارًا عفا عليه الزمن . . كنا عندئذ ننتج كل شيء من الدبوس حتى الصاروخ . . أصبحنا نستورد كل شيء . . ربما . . ما عدا الدبابيس . .

لكن هل تأخرت عن الذهاب إلى مقر الشركة ؟ فالساعة تقترب من العاشرة . .

إذن . . لأسرع الآن إلى الشركة ، حتى أقضى مهمتى . . وقطعًا سأجد لديهم دبوسًا يفرج كربتى . .

بالضرورة سأجد .

١٢ أغسطس ١٩٨١

الليلة فرح صغير . .

الليلة فرح صغير . . تدوى الموسيقى فى جنون . تتلون الأضواء على المسرح العريض المقام وسط الطريق . تجبر راقصة متكتلة الشحم ، جسدها الضخم على التمايل بعصبية . . دخان الحشيش يخدر الجو . ترتفع أصوات الحاضرين بلا انقطاع . تشترك مع ميكروفون يضخم الأصوات . يحولها إلى عويل وضجيج . . على حين تجمع بعض الصبية حول ركن المسرح ، ينظرون إلى أفراد الفرقة ، والراقصة التى تتلوى ، يحملقون فى وجه عوض البلدى المقطب . الشاحب . ينصتون – فى الوقت ذاته – إلى دقات الدفوف المتتالية . .

فجأة . . ينفجر عوض البلدى – حمّال الفرقة – صارخًا : أيها الناس . . أيها الناس .. أنتم يا من هنا . . أنصتوا إلىّ . . استمعوا قليلا . .

يتنفس بصعوبة . . يتحامل قرب الميكروفون . . تتعلق عيناه بشىء بعيد ، خفى : أيها الناس . . أنتم جميعًا . . أنصتوا واستمعوا . .

يتلفت إلى اليمين وإلى اليسار . بحسرة يخنقها الغضب . تدمع عيناه

الضيقتان . يمصمص شفتيه الجافتين . . يحك عينيه – المصابتين برمد ربيعى – بعنف . كأنه يود لو يقتل فيهما الرؤيا . . يضيع نداؤه وسط الصخب . لم ينصت له أحد ، عدا شلة الصبية ، الذين يحملقون فيه بفضول . يتناقلون بينهم كثيرًا من الغمزات والبسمات والتعليقات الساذجة .

ترنو إليه سنية الجمل – صاحبة الفرقة ومديرة أعمالها – برثاء ملفوف بالحرج : مسكين . . عاد لحاله القديم !

يجلس عوض البلدى . يلسعه تجاهل الناس . ينزوى يتخبط وسط صناديق الآلات الموسيقية . . يربت عليها بحنان كأنها تفهمه . . يخرج من جيبه سيجارة مفردة . من نوع رخيص يشعلها يبصق على الأرض . يمسح فمه المتقشف الجاف بظهر يده . يشدّ أنفاسًا متتالية من السيجارة . . كأنه يحرق شيئًا فى أعماقه . . يغمض عينيه . لأن النور الشديد يؤلمها يحس براحة سريعة . تستكين ملامحه . يهدأ اضطرابه . عدا ارتعاشة السيجارة بين أنامله التى ظلت تراوده من حين لحين .

من خلال إغماضة عينيه ظنه الأطفال نائمًا . لكن أذنيه كانتا تمتدان للأمام . تلتقطان نغمات الموسيقى الصاخبة فيهتز لها قلبه . وتطرب لها عواطفه ، وتتشكل مشاهد مختلفة فى خياله لتخلق عالمًا خاصًا يزخر بالحياة . . أشجار نخيل متناثرة . ترعة متعرجة تمتد بلا نهاية . بيوت صغيرة متكدسة . وجوه بسيطة خشنة . تربة بنية خصبة . . إنها قريته الحبيبة . . وخيط من الحنين يبعث لعنة الحاضر فى وجوده ويشعل فيه الرغبة لماض طاهر . وليلة لم يزل سوادها يؤرق ضميره ، وينغص حياته . وزائر المدينة ، يقص عليه الكثير عن الغناء وسهراته مع المواويل فى الأفراح ، حكى له أخبار الفن والفنانين وحياة الأضواء والمال

التى يعيشون فيها . مؤهلات الفنان فيها صوت ذهبى ، ثم يقدم فى حفلة . ثم الشهرة فالمال والأضواء . . أحب عوض البلدى حديث الرفيق المعسول ، ظل منصتًا إليه مبهورًا ، فاغرًا فمه ، مركزًا عينيه . تلمع أمامه صورته فى الملابس الأفرنجية . يرفعه تصفيق الناس إلى السماء ، يتبعثر المال تحت قدميه . يحييه كالأمير . أنصت للمذياع خيل إليه أن صوت المغنى صوته فاستبشر خيرًا وتفاءل . سيكون زميلا لهذا المطرب وسيلقى عبد الوهاب وكبار المطربين . سيناقشهم ويناقشونه . ينتقد غناءهم ويمتدحونه . . ماذا ينقصه عنهم . هو بشر مثلهم . له صوت عذب . . مواويله يصفق لها أهل البلدة . ولا يضيقون بسماعه مطلقًا . . من هنا اختمرت الفكرة فى ذهنه . نمت معه بمرور الأيام ، فكان كلما سمع مدحًا موجهًا لمطرب معين أحس أن المديح موجه له فيصعد الدم إلى رأسه ويشعر بالخجل وينكس رأسه تواضعًا .

عندما اكتمل نمو الفكرة تجسدت له فى ضرورة الرحيل إلى العاصمة الواسعة حيث يمكن أن يتوه فيها أى فرد . وحيث يوجد – وهذا الأهم – الغناء والشهرة والمال . . ودّع مواويله وأغانيه القروية تاركًا أهله وذويه ، هاربًا إلى المستقبل المشرق . وهبط إلى القاهرة حيث يمكن أن يتوه أى فرد وتاه .

زار كل أقاربه ومعارفه وأصحابهم . أمضى فى ضيافة كل منهم أيامًا ينتقل بعدها لمن يليه . استقبلوه فى البداية بالترحاب ثم بدأت الأبواب توصد فى وجهه . تجاهلوه عندما عرفوا أمره . ولقى نفس الصد والنفور من أهل الفن والطرب . . أيقن فجأة صعوبة طريقه عند ما وجد عشرات من أمثاله تمتلىء بهم القاهرة . كلهم – كل فى ظن نفسه – صاحب موهبة أصيلة وما يحتاجونه هو مجرد فرصة ومزيد من الحظ . جاع . تعرى . عمل فى النهاية ، مناديًا على

الأطفال التائهين ، نظير أجر زهيد . حتى أوقعه الحظ يومًا تحت سمع وبصر السيدة سنية الجمل ، فرفعته إلى فرقتها الصغيرة كمساعد لها ، يقوم على خدمة الفرقة . يحمل الآلات الموسيقية ، يردد السلامات فى الأفراح . .

يشعر بأيد تهزه بعنف . ينتبه مذعورًا من إغفاءته القصيرة . . يرى أضواء الفرح تشحب . ينطفىء نورها . يخيم الهدوء على المكان . يتحرك بعض أصحاب الفرح كالأشباح . يسمع صياح ديك قريب . . إذن اقترب الفجر . والوقت وقت الرحيل . . لكن صور القرية تعود ، تلح عليه ، تمسك بخناقه . تشكل فى خياله خطة لو تحققت . . لكفلت له العودة . . تنتصب أمامه سنية الجمل ، كمارد : هيا . . لم يبق لنا شىء . .

بل بقى يا سنية . . الوداع لأيامك وأفراحك . . فالفراق هو المطلب . والطريق هو الهرب . . ولتهنأ السيدة بالعذاب . . ولتبحث عن عوض آخر . . فالقرار نهائى ، لا رجعة فيه .

يحمل الحقائب كالعادة . . يصطاد سيارة أجرة ، تحملهم إلى شارع محمد على ، حيث ودع أفراد الفرقة السيدة سنية . إلّا هو فإنه ينام فى حجرته بالدور الأرضى وسط الآلات الموسيقية . وتنام هى فى الدور العلوى .

– يا عوض . . لا توقظنى غدًا مبكرة . .

رجاء متكرر . . تردده السيدة . وراء كل سهرة . لا تمل تكراره مطلقًا . .

يدخل حجرته . يرتمى على حشية طويلة . ممتدة على الأرض . كجسد ميت عفى عليه الزمن . يقذف حذاءه القديم من قدميه مباشرة على قدر ما يستطيع يسترخى على الأغطية القليلة المتسخة . تخرج يده بعضًا من قطن الحشية خلال تمزق فيها . يكوره . يقذفه على طول يده بضيق شديد . .

يمر الوقت سريعًا ليشرق فجر يوم جديد . . هل حانت الساعة التى تمثلها من قبل مئات . بل آلاف المرات ؟ . . هل سيتحقق حلم العودة الذى طالما رغب فيه ؟

ينهض متثاقلا يمشى حافى القدمين . يتحسس طريقه إلى السلم وسط الظلام . تلامس يده الدرابزين . يصعد السلالم ببطء . متجنبًا إحداث أقل صوت . يصل حجرتها يدفع الباب بحذر . يدخل سائرًا على أطراف أصابع قدميه .. تنساب بعض أشعة ضوء ، من فتحة النافذة . تضىء وجه السيدة . يتمهل . يقف مذهولا لا يدرى ما يفعل . . يراها نائمة . يتردد شخيرها المعتاد . يتقاطع على وجهها شبكة كثيفة من التجاعيد . تحيط عيناها هالتين زرقاوين . . دبّ فى شعرها المبعثر المشيب . نبتت على جبهتها حبات عرق ، كأنها تعانى من أمرٍ ما . .

رآها بلا زينة . عجوزًا تعدت الستين . انجذبت عيناه للأرض . . عجوز طيبة . . ساعتها فارت فى عينيه دمعتان . لم يعرف . . أهما من أجلها ، أم هبة من مرض عينيه .

يرفع وجهه ثانية . تقع نظراته على حقيبة المرأة . بجوار سريرها . تبتسم عيناه . يشعر بجفاف حلقه . . فى الحقيبة كل حصيلة الليلة . . يتحرك مسلوب الإرادة . . يفتح الحقيبة . ينتزع ما بها من جنيهات قليلة . يغلقها متعجلا . يحس فجأة أنها ترقبه . . يجرى مهرولا . خائفًا ، كأنّ شبحًا يطارده . يهبط السلالم مندفعًا . يدخل حجرته يرتدى حذاءه ، بعد أن أخفى الجنيهات فى جيبه . يغادر البيت . تفاجئه نسمة باردة . تنعش فكره السقيم . يمضى مترنحًا كالسكران . . أنوار الفجر الباهتة تداعب أفكاره المتدفقة بغزارة . . فعلها . .

أخيرًا فعلها . . سرق ليعود لقريته . .

يتطلع حوله . . يودع سنين الشقاء فى المدينة الكبيرة . . رأى شحاذًا متكورًا فوق الطوار ، وبيوتًا قديمة مهدمة ، وحفرًا – كالبثور – تنتشر على طول الطريق . محلات مغلقة . . الناس نيام . حتى أفراد الفرقة الموسيقية نيام . . تتجاوب هذه المشاهد مع جزء من ذاته . . هذا الشحاذ كثيرًا ما ثرثر معه . وهذه الأماكن عايشها . حتى الموسيقى الصاخبة . والأصوات المزعجة . اعتاد عليها . . كيف ينفصل عنها ؟ . . كيف يعود ، وصورة العجوز الوادعة تدعوه للانتظار . .

قضى فى المسير قرابة ساعتين بلا وجهة معلومة . نهبًا لصراع محتدم . . ينتبه على بوادر الحركة تدب فى الطريق . . لقد عاد إلى نفس الطريق دون أن يدرى .. يتوهج بالفرحة ، وهو يرد تحية من يقابلونه .. صباح الخير .. صباح جميل . . هنا يشعر باللحظة التى يعيشها . فالناس هنا اعتادوه أحبهم وأحبوه .

يرجع إلى البيت الهادئ . يعبر السلم متعجلا . يفتح باب غرفة السيدة . يسرع بوضع الجنيهات فى الحقيبة . يغلقها . تتقلب العجوز فى سريرها . تفتح عينيها المرهقتين تعوى : عوض . . أحدث شىء ؟!

يضطرب . يهمهم بكلمات لا معنى لها . تضطجع العجوز على سريرها . تنظر إليه طويلا . ما يزال النوم يخدر أجفانها . تتثاءب : عوض . . ما الحكاية يا عوض ؟ . . تكلم . .

يجلس عوض على حافة السرير . لا يقدر على النظر إليها . حتى لا تفضح عملته عيناه : فكرت فى السفر . .

تعتدل فى جلستها . تدقق النظر إليه . تثور : بالأمس أردت أن تفسد الليلة . . واليوم عدت للتفكير فى السفر . .

يقاطعها غاضبًا : أنا أفسد الليلة . . أنا . . مطلقًا . .

بانفعال : الناس لا ترى لا تسمع . .

تقاطعه سنية بحسم : كلام فارغ . . أفسدت من قبل فرحًا . . ألا يكفيك . .

ثم بهدوء : هؤلاء هم مصدر رزقنا ونعمتنا . . هل ستغيرهم ؟!

تشيح بوجهها للناحية الأخرى : والآن . . اذهب . . لتعد لى طعام الإفطار . .

لم أخبرها إذن بأمر سفره ؟ . . لعله تبرير حتى لا تشك فيه . . ولمن يعود فى قريته ؟! . . أيعود ليزف لهم خبر فشله . . وحكاية ضياعه . . فيغدو مضغة فى الأفواه ؟

تصرخ سنية : عوض ما بك هذا الصباح ؟

ينهض مرتبكا ، يهرول . ليعد لها طعام الإفطار . . ويطرح عن نفسه التفكير فى المدينة الكبيرة ، حيث الشهرة والمال ، أو فى القرية . . حيث أمل العودة ، الذى لن يتحقق .

١٢ يناير ١٩٧٤

اللحظات الأخيرة قبل الرحيل . .

يتنفس صبحى زاهر بحرية . للمرة الأولى على مدار هذا اليوم العصيب ، يشعر بالهواء النقى يندفع فى رئتيه ليجدد هواءهما الحبيس الفاسد . يستند على كرسى خشبى فى قاعة طعام الشركة الواسعة ، يتلفت حوله . القاعة مهجورة . الفراغ سيد المكان ، الفوضى مسيطرة . . إعلانات المرشحين مبعثرة على الأرض ، فوق المناضد ، تحت الكراسى ، طبقات فوق بعضها البعض . . حاول عند الظهيرة أن يخترق القاعة ليصل إلى حجرة الانتخاب ليدلى بصوته . زحام العمال جحيم . أنفاسهم اللاهثه تلسع . رائحة العرق الناضح تتداخل مع دخان السجائر المتصاعد فينتج خليط مميز مزعج . ألصق ابتسامة على وجهه فوق القلق . شدّ على الأيدى بحرارة . ظل يصرخ فى كل تجمع حتى يسمعوه : اليوم يومكم . . طبعًا أنا رجلكم . . إياكم أن تنسونى . .

اهتزت الرءوس تلاحمت الأجساد . غاصت العيون فى أعماقه . توقف . كاد أن يختنق وسط الزحام البشرى الرهيب ، جسده الضخم لا يسعفه على

الحركة السريعة وسط التيارات المتصارعة . .

يتنفس ثانية – شهيقًا عميقا – ليؤكد لنفسه انتهاء يوم الحشر . ينظر حوله . . لوحات المرشحين الضخمة تغطى الجدران بلا نظام . . صورهم الجادة ، والعابسة تطل من كل جانب تراقب ، تأمر ، تستعطف . . **قال له أحمد الجمل : كلما بحثت عنك . . لا أجدك . . أين أراك يأخى ؟ . . أين ؟!**

يفاجئه إعلانه القماشى . الطويل ممزقًا ، مهملا ، بعيدًا عن موضعه كأنما بفعل فاعل . . لكن من فعلها ؟ . . ولم ؟ .

ينهض متباطئًا يمدّ يده لرايته الطويلة . المنكسة يهزّها عدة مرات ليزيل ما علق بها من أتربة يهاجمه الغبار المتطاير يتأفف سيعرضها أمام ناظريه يقرؤها كأنما للمرة الأولى . .

« انتخبوا صبحى زاهر . . ابنكم البار » .

ابنكم البار . . حملوه على الأكتاف يوم نجاحه فى الثانوية العامة . لقّوا به عنابر الشركة وقت الراحة . أقاموا له وليمة فى نادى الشركة . رفعوا طلبا للإدارة حتى يكون رئيسًا بينهم . . يومها ، قال له أحمد الجمل ، وصوته يجيش بسعادة غامرة : تعرف يا صبحى . . أحس أن نجاحك نجاح لنا كلنا . .

يتذكره . . يتذكره . . كيف نسيه ؟! . . أحمد الجمل ، العامل العجوز . . ضخم الجثه ، خفيف . الظل ، ابن النكتة الساخرة . . كيف نسيه ؟!! . . عشنا معًا ، أكلنا معا ، عملنا معًا سنوات جنبًا لجنب فى الوردية المسائية . . لا أنسى يومًا قال فيه لزملائه العمال فى العنبر : اسمعوا يا رجال . . صبحى يعمل نصف الوردية . . ونتركه يذاكر النصف الثانى . .

ضحك فى وجوهنا ، غامزًا بعينه بخبث : وطبعًا .. سيراعينا . . مرة شاى . . مرة قهوة . . مرّة عشاء .

أكمل مقهقهًا : إياكم أن تعتقدوا أن هذا لنا . . طبعًا لنفسه . .

بوجهه الأسمر. الجاد : المهم تشد حيلك .. وتنجح ..

اسقط الإعلان من يده . كيف نسيه ؟ . . كيف نسيه ؟ . . **قال رئيس النقابة : ركز جهودك . . هذه الفترة تحتاج نشاطًا مكثفًا . . لابد أن تشعر العاملين بجهودك** . .

اجتماعات لا حصر لها . مناقشات بلا نهاية.البالطو الرمادى الداكن الذى لم يمتلك مثله من قبل يدفئه ، يبعد عنه شبح البرد . عقله كتاب منظم . لسانه اعتاد الحركة ، شعاراتنا معروفة للجميع . وظيفتنا أن نعلنها على الملأ . .

آثار الأقدام المتربة تبدو واضحة على أوراق الإعلانات البيضاء . داستها فى زحمة الحركة الدائبة ، المستمرة .. حذاؤه أيضًا ملوث بالأتربة . . أحب أن يبدو دائمًا لامعًا . نظيفًا ، يضايقنى انطفاء لمعته . . مدّ يده إلى جيب البنطلون الخلفى . أخرج قطعة قماش قديمة . أعاد بها اللمعة للحذاء . ذات يوم – عندما كنت عاملا صغيرًا – نويت شراء حذاء جديد ، شاء سوء الحظ أن تمرض أختى الصغيرة ، وترقد فى الفراش ..كان الصراع ضاريًا . لكن مظهرى بين العمال . المظهر الذى داومت على الاحتفاظ به مهما كلفنى . هل أدعه ينهار بسبب حذاء قديم ؟ . . ثم أنى أشارك فى البيت شهريًّا بجنيهين . . أليس هذا كافيًا حتى أتفرغ للاهتمام باحتياجاتى الغالية ؟ . .

يعبر أحد العمال المطعم . . شاهد صبحى لا محاله . مضى صامتًا . لم يتكلم . . إذا كان رآنى فلم تجاهلنى ؟ . . فى الأيام الماضية ، عندما كان يعمل

بينهم . لم يتركوه فى حاله . طلباتهم لا تنتهى . . طلبات سلفة على المرتب . . البحث عن سبب نقص المرتب . . شكوى عن تأخير ترقية ، أو عن حق ضائع . . يومها قال أحمد الجمل مبررًا طلباتهم المتزايدة : مع موظفى المكاتب . . نشعر دائمًا بحاجز بيننا وبينهم . . أنت الوحيد المتعلم مثلهم . . ويمكن أن تطلب لنا حقوقنا . .

بدأ الظلام يهبط على القاعة الفسيحة . يبدو مقدم الليل كإعلان بانتهاء يوم حافل . . تراءت صور المرشحين المعلقة كأشباح تترنح . تتخبط فى الظلام الهابط فى سكون . يتمشى صبحى إلى حجرة فرز أصوات الناخبين . . هزّ زميل يده متحمسًا : لازم الناس تعرف قيمتنا . . وجودنا أساسى فى مجلس الإدارة . .

يتسرب النور الكهربى من نافذة الغرفة المقصودة . . يخطط ، يرسم ، يجسم سورها الحديدى المتقاطع على أرض القاعة . رأى لجنة الفرز من بعيد . ينهمك أعضاؤها فى أداء عملهم بهمة ونشاط . . لم يرغب فى مزيد من الاقتراب . . تمهل . توقف ، **اندمج مع العمال خلال فترة الراحة فى جمع واحد . قال شاعرًا بخطورة ما هو مقدم عليه : يا جماعة . . أنا أفكر فى ترشيح نفسى للنقابة . . قاطعه أحمد الجمل بصوت يكاد يزغرد : على بركة الله .. كلنا معك .. على الأقل نجد فى النقابة من يمثلنا .. استحسن الجمع الفكرة ، أيدوه بصدق .. تنبأ له أحمد الجمل : ستنجح .. بإذن الله ..**

يهز رأسه فى الظلام . . ينبسط المستقبل أمام خطواته الثابتة ، ممهدًا ، واضحًا . . نجحت . . مازلت أعتز بشهادة رئيس مجلس إدارة الشركة وهو يصافحنى : يا صبحى . . أنت مخك متفتح . . ولك مستقبل . .

يسير فى القاعة ببطء ، محاذرًا الاصطدام بمقعد أو مائدة.يتعلق بصره بباب

حجرة الفرز المغلق بأمل . . اجتمع مع زمرة العمال الأعزاء . . أمامه أبواب مفتوحة . غير مطروقة ، على طريق المستقبل الذى بدأت تتضح معالمه . . بطموحه يصل ، بالتخطيط والحساب يثبت مكانته ، بالإصرار يغير وضعه . ويومًا سيشار إليه بالبنان : كان يعمل معنا ذات يوم . . راح يبثهم أمله الجديد : تعرفوا يا جماعة . . أفكر حاليًّا فى ترشيح نفسى . . للنقابة العامة . .

كيف أخشى معارضتهم . طيبون . طيبون . شجعونى بحماس جنونى . عبرّ عنهم أحمد الجمل : كلنا معك . . أنت خير من يعرف أحوالنا . .

صاح مهللا : ستنجح . . بإذن الله . .

حملونى على الأعناق . غمرونى بالقبلات والأحضان . لفّوا بى أرجاء الشركة مفاخرين . . صيحات الفرح تتعالى من كل ركن : ابن عنبرنا . . الأول فى الانتخابات . . أكبر عدد من الأصوات . . يومها قال أحمد الجمل : أرأيت . . إياك تفتكر العامل جاهل . . هذا معدنه . . يفتح قلبه لمن يقف معه . . لمن يفهمه ويساعده . .

حكمتك أيها العجوز تعزّ على الوصف . افتقدتها على مر الأيام ، كنت معى . . فى ذلك اليوم المشهود - كظلى - من حولى أبناء عنبرنا المبارك يتقبلون التهانى ، يشاركون الانتصار . . يومها قلت : من يكون العمال معه . . فالله معه . .

يدق صبحى بقدمه على الأرض بانتظام ، محاولا أن يؤنس وحدته الموحشة . . تذكر رئيس النقابة العامة : الحرية هى طريقنا الوحيد . . والديموقراطية هى سلاحنا الأكيد . . بالاثنين مستقبلنا يبقى مأمون .

أما أنا فكأن المستقبل المضمون دان لى عندما حظيت بشرف النجاح فى

النقابة العامة بدأ اهتمامى بالعمل السياسى. تفرغت .

يذكر عناق أحمد الجمل ، كمن يودعه . دمعت عيناه لشدة انفعاله . قال محاولا تصنع المرح : لا تنسانا يا صبحى . . فهنا المنبت والأصل . .

مازال لقاء رئيس مجلس إدارة الشركة يطربه . تبسط معه فى الحديث : أولا مبروك . . أنا قلت لك من زمان أنت لك مستقبل . .

تأكد مستقبله بمقابلة أمين المحافظة عندما استلم عمله كأمين للقسم : اليوم نعتبرك أحدنا . . إنما لازم تعرف أن العمل السياسى صعب . . أصعب مما تتصور . . .

يجذبه الضوء الباهر المنبعث من غرفة فرز الأصوات . . دائرة الضوء تنتهى بعيدًا عنه . قضبان النافذة الحديدية تحبسه فى الظلام ، تسجنه ، بعيدًا عن مصدر الضوء . . ابتسم رئيس مجلس الإدارة : الشركة مقدرة عملك الصعب . . لذلك خصصنا سيارة نصر صغيرة تحت تصرفك . . لتسهيل تحركاتك طبعًا . .

قال أمين المحافظة مشجعًا : أنت عينت رئيسًا لمجلس إدارة مركز الشباب الرياضى بالقسم . . طبعًا لابد نكون وسط الجماهير . .

أكمل : عش فيه فترة . . تخير أصلح العناصر من الشباب . . سنعين منهم مجلس الإدارة الذى يساعدك . .

يجلس على كرسى ، متعبًا . متوترًا ، متحفزًا يستند إلى مائدة أمامه . . سأله أحمد الجمل فى أثناء زيارته فى مقر عمله الجديد ، ببراءة : لماذا تقيمون بعيدًا عنا ؟!

قال وهو يحاوره : وهل يوجد أجمل من هذا الموقع ؟

كرر سؤاله : أقصد . . وسط مساكننا . .

فهمته . . يعنى وسط الحوارى والأتربة . . أجبته : الحقيقة . . أخذنا هذه الفيلّا من الحراسة . . كى نعمل بها . . يبدو أن المكان لا يعجبك . .

لا جواب . . انهمك العجوز فى شرب الشاى . . قلت متذكرًا : تعرف أنى سأتزوج يا عم أحمد . . طبعًا هاعمل ليلة كبيرة . .

– مبروك .. ألف مبروك . .

مستدركًا : والسكن ؟

اندهشت لسؤاله : وجدته . . طبعًا وجدته .

استفسر : أين ؟

قلت على الفور : هنا . . بجوار الفيلّا .

قاطعنى مشفقًا : إنما السكن هنا غالى . .

ضايقنى قوله . قلت ساخرًا : أفتكر أقدر أدفعه . .

نهض . شعر أنه ضايقنى . استأذن مودعًا : السلام عليكم . . يا أستاذ صبحى . .

يتسلل الملل إلى نفسه . كم مضى من الوقت ؟ . كم بقى ، حتى تعلن النتيجة ؟ يضرب الأرض بقدمه بعصبية .. « قال أمين المحافظة : لابد من الارتباط بالقاعدة . . حتى يكون أساسنا سليمًا » .

زارنى العديد من عمال الشركة . . يا للسماء . . من يظنوننى ؟ . . مطالبهم لا تنتهى . . أنصت إليهم فى البداية . سمعتهم . . تكاثروا علىّ ، حولتهم لزملائى بالمكتب . رجوتهم أن تكون طلباتهم مكتوبة حتى يسهل بحثها . . فمشاغلنا كثيرة . ووقتنا ضيق . .

كامن فى جوف الظلام ، أتحين اللحظة المناسبة ، لأقتنص النتيجة . . هل يكتب لى النجاح ؟ . . فأفوز كالعادة . . « قال أمين المحافظة : أملنا كبير أن تفوزوا فى انتخابات مجالس إدارة شركاتكم » . ينهض يغادر مكانه . . متهم ينتظر حكم الإفراج يناجى نفسه مستبشرًا : طبعًا سأنجح هذه المرة . . كالمرات الماضية . . لكن . . ماذا يحدث لو . . يرتعش . يقتل اللكن فى نفسه . يتشاءم . . « قال أمين المحافظة : كان الله فى عوننا . . الجماهير هى الحكم » . أين أنت يا عم أحمد حتى تفجر الصمت بمداعباتك السمجة ، أو نكتك الظريفة ؟ . . أدرك – فجأة – أنه لم يره منذ فترة طويلة . . لم يكلف نفسه مشقة البحث عنه أو استدعاءه . . اللعنة على المشاغل منبت كل البلاء . . لكن لو فشلت

أبعد الخاطر الرهيب عن ذهنه . هرب منه . . سينجح . . بمراكزه العديدة سينجح . . إنها شركته لن تخذ له مطلقًا كما رفعته بالأمس . . ستنصفه اليوم . .

يمسح شفتيه بظهر يده بعصبية.يشاهد باب غرفة فرز الأصوات يفتح . انبثق النور يزيل ظلام القاعة يفجعه . يصدمه ، لا يحتمله ، فيغمض عينيه مستشعرًا خطرًا داهمًا بحاسته الخفية . . لا يستطيع أن يتقدم . . هل . .

يسود الهرج أمام باب اللجنة يسمع صيحات الفرح والانتصار . . يتذكر أيام انتصاراته السابقة ، يحنّ لماضيه . . جاء مندوبه ساهمًا . اكتشف النتيجة ظاهرة . مرسومة على ملامح وجهه المكتئب . . يخبط الرجل كفًّا بكف متحسرًا يخرج صوته المبحوح مندهشًا : حاجة غير معقولة . . تصور أنك أخذت . . تسع أصوات . . من أربع آلاف صوت . . تصور . . حاجة غير معقولة . .

٣ سبتمبر ١٩٧٤

فهرس

رقم الإيداع	١٩٨٣/٤٦٥٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٠٢ - ٠٦١٢ - ١

١/٨٢/١٦٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)